الجزائر في القرن السادس عشر

علي تابليت



الجزائر في القرن السادس عشر

علي تابليت

معهد الترجمة - جامعة الجزائر

تمهيد

بدأ التحرك العثماني في البحر الأبيض المتوسط منذ وصول الأخوين عروج وخير الدين من جربة إلى الجزائر لمساعدة الأخيرة. لكن ما يلاحظ هو أن الأسطول الرسمي للدولة العثمانية لم يشارك في أية مواجهة في الحوض الغربي للمتوسط، إذ ترك العثمانيون مهمة مواجهة التواجد الأسباني، في هذه المنطقة على قوات محلية تؤازرها القوة العثمانية. فقد أدرك خير الدين الوضعية العسكرية الحرجة والصعبة فعمل على طلب السلطان سليم الأول بإلحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية.

واستجابة لذلك، سارع السلطان، سليم الأول، بارسال فرمان تعيين خير

الدين باي لا رباي على الجزائر. واعتبرت الجزائر منذ ذلك الحين جزءا من الامبراطورية العثمانية.

على أن أهمية ما قام به خير الدين لصالح العثمانيين لا تكمن فقط في تصفية الوجود الاسباني بالجزائر، خاصة، بعد استيلائه على قلعة البينون فحسب، بل في أنه أصبح يمثل «ثقل السياسة العثمانية بالمغرب الأوسط» في تلك الفترة. حيث استعمل الجزائر كمنطلق لتوسيع النفوذ العثماني بمحاولة الاستيلاء على تونس.

وبعد استعادة حصن البينون سنة 1529، استجاب خير الدين لاستغاثة موريسكي الأندلسي، مرسلا سنة 1529 ستة وثلاثون سفينة لهم. فقد أنقذ خلال سبع رحلات متوالية سبعين ألف من عرَب الأندلس.

وهكذا أمكن للعثمانيين، بطريقة غير مباشرة، التحكم أو على الأقل التأثير في أحداث الحوض الغربي للمتوسط والفعل فيها دون أن يكون لهم حضور مباشر ورسمي بالمنطقة.

قرن حاسم في تاريخ المغرب الأوسط

اتسم القرن السادس عشر بالحملة الاسبانية ووصول الأتراك العثمانيين وإقامة دولة تابعة للأمبراطورية العثمانية.

الحملة الصليبية الاسبانية ونتائجها

تلم الأسبان اثر سقوط غرناطة (1492) على «استعادة» الأندلس من
لا تكمن فقط ف لمسلمين وطاردوهم حتى في شمال افريقيا.
على قلعة البينو
رب الأوسط» ف
لعثماني بمحاو
يطول عام 1497، استولى الأسبان على مليلة ودخل الكاردينال
"Ximénes" المرسى الكبير في سنة 1505. وفي عام 1509 نزلوا بوهران
واستولى «بيدرو نافارو Pedro Navarro» على مدينتي بجاية وطرابلس في
عام 1510. وأمام هذه الانتصارات الاسبانية الصليبية، اعترفت الجزائر
الدين لاستغا سيادة «فردناند الكاثوليكي Ferdinard Le Catholique» وتنازلت له عن
نة لهم. فقد أنش على الجزر الواقعة في الشمال الغربي من الجزائر. وحوّل الاسبان هذه
الجزيرة إلى قلعة سموها «البينون(1) Le Pegnon» ومنها صاروا يراقبون
حركة البواخر، وهو ما جعل الجزائريون يضطرون آنذاك، لسحب بواخرهم
لى الأقل التأثي إلى شاطئ باب الوادي على بعد ميل إلى الغرب من مدينة الجزائر.
ون لهم حضو

مدينة وهران

كانت المدينة تشرف على سهلي مليتا وسيراط الخصبين الشاسعين، حيث
جيوش القوات الأسبانية أن تتقدم دون صعوبة. وبما أن رعي القبائل المجاورة
راك العثمانية في السهلين أمر لا مفر منه فكان لا بد عليها أن تتفاهم مع الاسبان كي

بحوث - 5 -

يتسنى لها الانتفاع الهادئ الآمن. إذ كانت القوات الاسبانية تقوم بغارات مفاجئة على أحد الدواوير للاستحواذ على غنائم لا بأس بها في مناطق الرعي الوهرانية، وتحت أسوار المدينة ذاتها، كان الأهالي يعيشون ويموّنون المدينة بالخضر والحبوب والأنعام.

وكانت وهران مركزا كبيرا للقوة الأسبانية في افريقيا. وأهم مركز مراقبة لهم. وهذا الدور الطلائعي الذي تضطلع به المدينة ناتج عن وضعها الجغرافي المتميز، فهي قريبة من أسبانيا وليست على أبواب المغرب. ولعله من الخطأ أن يتخيل المرء أن وهران مدينة واسعة فاخرة تذكر الحياة فيها دوما بمباهج الحياة وأفراحها في الأندلس. فهي شبيهة بمجرد حصن منيع دائما على أهبة التصدي. وتتميز حياة الجندي فيها وفي غيرها بجملة من أنواع البؤس. ويكفي للتأكد من ذلك الاطلاع على ما كتب عنها. فتارة لم تستطع قوافل القمح أن تعبر البحر في الوقت المناسب وتارة ترفض مملكة تلمسان تسليم الكميات العينية المنصوص عليها في المعاهدة وتارة أخرى تسود المجاعة بسبب نهب الموردين المنتفعين في كل مرة. وقد كتب الكونت دالكودال "Le Conte d'Alcaudèle" في سنة 1535 قائلا: «لقد اعترضتني صعاب في الدفاع عن هاتين المدينتين (وهران والمرسى الكبير، ضد الجوع تفوق ما واجهته من صعاب في الدفاع عنهما ضد العدو ...) ويضيف «علينا أن نولي درجة أقل من العناية لمصالح الموردين ...).

نية تقوم بغارا
بها في مناط
يعيشون ويمّونو

هم مركز مراق
ضعها الجغراف

ولعله من الخط
يها دوما بمباغ
منيع دائما عل
جملة من أنوا
نتارة لم تستط
، مملكة تلمسا
ة أخرى تسو
لكونت دالكودا
رضتني صعا
الجوع تفوق م
«علينا أن نول

في أفريل 1536، ظهرت محن جديدة، فمحصول فلاحة السنة السابقة كان رديئا وتعاني مدينة وهران نقصا في القمح ... والوحدات العسكرية لا تستلم أجورها بانتظام، ففي المدة الأخيرة فقط قبضت الثلث الثاني من أجرتها الخاصة لعام 1535. إن الجنود غاضبون ويريدون الرجوع إلى Castille. وفي جوان من عام 1536 أرست ثلاث مراكب شراعية محملة بالأغنية في الميناء.

وكتب حاكم المدينة «أن وصول هذه البواخر جاء في الوقت المناسب فلم يعد عندنا الخبز وبدأنا نفتقر إلى المواد الأخرى» وما أسهل أن تطول قائمة الطلب.

أوضاع الحاميات الاسبانية في افريقيا

إن وجود الحاميات الاسبانية في افريقيا يبدو كئيبا ويبعث على الملل. القلعة أعيد بناؤها منذ 1525 على مرتفع قريب من المدينة القديمة، ويحميها سور قوي يقف ضد أي هجوم محتمل من القبائل المجاورة. إلا أن القلعة المتربعة على مرتفعها ينقصها الماء الشروب رغم خزاناتها، وعليه يتحتم على الحامية جلب المياه من ملاقا. كما أن المؤونة فيها نادرة لدرجة أن الجماعة تتفشى فيها بمجرد أن يعلن فيها قائد من الأهالي الأصليين أنه يبحث عن مأوى مع أتباعه في ساحة اسبانيا الصغيرة.

بحوث - 5 -

وفي بجاية كان الوضع يشوبه الحذر دوما. فالوثائق القليلة التي تتحدث عن هذه الحامية مليئة بالشكايات. فأحيانا تشير إلى وجود شقوق في التحصينات وأحيانا أخرى، يأتي الحديث عن انعدام الأمن في ضواحيها لدرجة أن جمع الحطب يستلزم استنفار نصف الحامية.

وفي عنابة Bône، كاد الوضع أن يشبه المأساة. فقد قتل قائد المدينة في خريف 1540 أمين المال "Miguel de Penagos" مما أدى إلى احباط معنويات جنود الحامية. وفكر جنود عنابة في التخلي عن مراكزهم والالتحاق بصفوف المسلمين وكتب المحقق فرانسيسكو آلاركون "Francisco Alarcon" الذي جاء من كاغلياري "Cagliari" إلى عنابة قائلا للأمبراطور «أسارع لأخبر جلالتكم أن هؤلاء المساكين الذين أدى بهم فقدان الأمل إلى حبهم في الالتحاق بالمسلمين صاروا اليوم يقرّون بذنبهم ويتقربون ...).

الجزائر تستنجد بعد موت فرناند بعرّوج «1516».

لقد رأى سكان مدينة الجزائر أن موت ملك الأسبان ينهي تبعيتهم لاسبانيا. ولكي يأتوا على قلعة «البينون» هذه الشوكة المغروسة في قلوبهم استنجدوا بعرّوج أو بابا عروج. ويقول المؤرخون أنه ابن «صبايْحى» متقاعد استقر في جزيرة ميتيلان «اليونانية» حيث اشتغل في الفخار.

الأخوين بَرْبَروس

عروج وخير الدين أصلهما من جزيرة ميتيلان (لسبوس القديمة في أرخبيل اليونان). ويقال بأن السلطان محمد بن يزيد وضع جنودا في هذه الجزيرة عند افتتاحها لمراقبتها. وعيّن على رأس هذه الحامية رجلا قاسيا. وبعد مدة طلب الجند من قائدهم أن يكتب إلى السلطان ليلتمسوا منه رخصة الاقتران بالبنات المسيحيات في الجزيرة. وفعل القائد ما طلبه منه الجنود. وبالفعل رخص لهم السلطان بذلك ان شاؤوا بل وتمكنوا من إرغام أهل الجزيرة إن رفضوا.

ومن بين جند هذه الحامية، كان جندي يدعى يعقوب الذي تزوج بفتاة مسيحية أنجبت له أربعة بنين هم إسحق، وعروج، وخير الدين وإلياس.

صورة عروج باربا روس

يقول من عرفه أن «عروج كان يبلغ أربعة وأربعين عاما عندما وافته المنية. ولم يكن طويل القامة ولكنه كان قويا شديدا وله لحية حمراء ونظر حاد تنطلق منه شرارات وأنف أقنى. وكان أسمر اللون، مليئ بالحيوية، وكان مقداما وشجاعا وشهما كريما ولم تصدر عنه أبدا قساوة، اللهم إلا في الحرب عندما يقضي له أمر. وكان في الوقت نفسه محبوبا ومهابا ومحترما من جنوده

الذين بكوا موته بكل مرارة». وقد أكسبته مآثره ضد الاسبان شهرة لا بأس بها حيث كان يقوم بالقرصنة لحساب سلطان تونس منطلقا من جزيرة جربة (ربما منذ عام 1504) ثم من حلق الوادي. كما حاصر مدينة بجاية (1512) واستولى على مدينة جيجل ومنها صار يقوم بالحملات على السواحل الاسبانية والايطالية ولم يبخل بتقديم المساعدة للمسلمين الاسبان الذين لجأوا إلى شمال افريقيا. ووجدت الجزائر في شخص عروج سيدا يصنع قوتها بعد استقراره في الجزائر وإن كان لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة «البينون» وقام بعدد من الاعدامات:

فخنق بيديه سلطان الجزائر، سليم التومي الذي استنجد به، ثم قتل في شرشال أحد أصحابه من القراصنة مبعدا بذلك من طريقه منافسا محتملا.

واستولى بعد ذلك على مدنية تلمسان التي طرد منها سلطانها الهارب من المدينة المحاصرة من قبل الاسبان والمطارد من طرف قوات وهران. وقد مات محاربا قرب ريو سلادو "Rio Salado" عام 1518. وكان قد استطاع أن يمد سلطانه على المتيجة وسهل الشلف والتيطري (المدية) والونشريس.

مقتل الأمير العربي سليم التومي شيخ الجزائر على يد عروج

لقد كان سليم التومي لا يتحمل احتقار عروج له والعجرفة التي كان يعامله بها علانية في قصره بالذات. وكان يحطاط منه ومما يحصل له بعد

ن شهرة لا بأ
من جزيرة جر
ر مدينة بجا
بالحملات عل
سلمين الاسبا
ن عروج سيد
ى الاستيلاء عل

به، ثم قتل في
افسا محتملا.

نها الهارب من
ران. وقد مات
د استطاع أن
شريس.

د عروج

فة التي كان
حصل له بعد

بحوث - 5 -

عصبة أيام لأن باربا روس الذي يفكر ليل نهار كيف يستولي على المدنية، عقد العزم في النهاية على أن يغدر بالشيخ ويقتله دون أن يراعي تقاليد الكرم وحسن الضيافة. وقرر أن يقتله بيده وأن يعلن نفسه سلطانا بالقوة المسلحة. ولكي يصل إلى مبتغاه دون صخب ومن غير علم الجميع، اختار ساعة منتصف النهار حيث دخل سليم التومي بيت حمامه ليتوضأ ويؤدي صلاة الظهر، فدخل إلى الحمام دون أن يراه أحد لأنه كان يسكن في القصر بالذات فوجد الأمير وحده عاريا فخنقه بقطعة قماش ملفوفة جاء بها معه وتركه ممدودا على الأرض. وبعد مضي حوالي ربع ساعة دخل من جديد إلى بيت الحمام وصاح مناديا أهل القصر قائلا لهم أن الشيخ مات مختنقا بحرارة الحمام.

وعندما علمت المدينة بما حدث خاف الجميع وأغلقوا أبواب المنازل وكانوا يشكون في جريمة من عمل عروج وغدره لأنه كان قد أعلم بذلك الأتراك المتطوعين تحت قيادته وأهل جيجل الذين ساروا في حشود يعلنون فرحتهم حين كان يسير ممتطيا فرسا في المدينة وأعلنوه سلطانا دون أن يجرأ أي جزائري على التفوه بكلمة.

نهاية عروج بارباروس

قرر المركيز الاسباني دي كوماريس "De Comaris" الحاكم العام لوهران، أن يطرد عروج من تلمسان ليضع على رأس هذه المدينة الرايس بن حمو.

اغتنم باربا روس فرصة حلول ليل داكن ليخرج من المدينة دون عل
سكانها مع أتراكه ورجاله الأندلسيين وأخذ معه أكبر قدر ممكن من الغنائ
وسار سرعة البرق على طريق الجزائر آملا في مخادعة يقظة العدو. ولكن
المركيز الذي كان قد أقام معسكرا بالقرب من المدينة تم اخطاره بخروج
بمجرد ذهابه، واطلاعه على الطريق التي سلكها الأتراك فأتبعه هو بنفسه مع
مجموعة من الفرسان مع التحلي بالحذر الشديد بسبب الليل، فالتحق
بعروج على بعد ثمانية أميال من تلمسان في الوقت الذي كان يستعد لعبور
وادي الكبير المسمى هويزا "Huexda" وكان يحاول عبور الوادي للاختفاء
بعد أن لاحظ أن المركيز يلاحقه عن قرب وأن النصارى قد اقتربوا منه لدرجة
أنهم صاروا يقتلون أتباعه ويقطعون رؤوسهم. ولكي يوقف عدّوه لجأ إلى
خدعة جريئة، تتمثل في رمي كميات كبيرة من الأواني الذهبية والفضية
والمجوهرات والنقود وأشياء ثمينة جدا حملها جنوده الأتراك، آملا بذلك أن
يوفر لنفسه الوقت كي يحتمي وراء النهر حينما يكون الاسبان منهمكين
بجشع في جمع الكنوز التي رمى بها. غير أن المركيز حمى جنوده لدرجة
أنهم صاروا يحتقرون كل هذه الثروات وأصبحوا لا يفكرون إلا في القبض
على عروج قبل أن يتمكن من عبور النهر. فقد كانوا يدوسون بأرجلهم الكنوز
مندفعين نحو القاء القبض على الأتراك. وعندما أدرك أتباع عروج أن الخناق
شدّ حولهم واجهوا أعداءهم مواجهة الأبطال وكان عروج ببندقيته فقط يقاتل
قتال الأسود. وبعد مرور مدة زمنية قصيرة قتل معظم الأتراك وقطعت
رؤوسهم الواحد بعد الآخر. وتمكّن عدد ضئيل منهم من عبور النهر ومن
الفرار.

تلك هي نهاية حياة وكبرى مشاريع باربارؤس الأول الذي جاء بالأتراك إلى بلاد الجزائر وعلمهم قيمة ثروات الشرق والذي مكنته شجاعته وفطنته من إقامة امبراطورية قوية. أما المركيز الذي سُرَّ بهذا النصر فقد عاد إلى إسبانيا حاملا رأس عروج على حد رمح.

الجزائر تنضوي تحت لواء الامبراطورية العثمانية

انضوى خير الدين تحت لواء سلطان القسنطينية (1518) ليستطيع التغلب على المقاومة المحلية وعلى دسائس الاسبان وحصل بذلك على لقب «باي لرباي» وعلى 2.000 جندي انكشاري وعلى المدفعية. وكانت الامبراطورية العثمانية قبل ذلك قد توسعت بضم مصر وسوريا إليها في عام 1517.

وقد اتسم عمل خيرالدين أخو عروج وخلفه بإلحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية، كما ذكرت آنفا، واقتحام قلعة «البينون» وبناء ميناء الجزائر وأعطاه نفسا جديدا للجهاد البحري ونظم إدارة دولة الإيالة.

خير الدين يستولي على حصن «البينون» PENON.

- أقام خير الدين مجموعة من المدافع من بينها مدفعان قويان، أحدهما أعاره له القائد الفرنسي للباخرة «لوفرارجان Le Père Dean» التي جاءت إلى الجزائر للتفاوض.

وقد دك خير الدين الحصن دكا طيلة خمسة عشر يوما متتالية دون انقطاع أثناء الليل. كما أن الأتراك كانوا يطلقون النيران من البنادق الواسعة المخرج "Escopettes" ويرمون الحصن بالسهام وهذا ما كان له أثر على ضواحي الحصن، وإن كان هذا الحصن صغيرا ولا يمتد على نطاق واسع فهو يعتبر قلعة لا بأس بها في ذلك الزمان، ولكنه كان ينطوي على عيبين كبيرين يتمثلان في كونه لا يتوفر سوى على أربعة مواقع صغيرة منها موقعان مقابلان للمدينة من جهة الهجوم والموقعان الآخران موجهان نحو عرض البحر وكلها كانت ضعيفة جدا للصمود أمام وابل القصف المدفعي الذي تعرضت له. ولم يكن في الحصن سوى مائتان من الجنود الاسبان، وكان قائد الحصن هو الفارس «كستيون مارتان دوفارغاس Castillon Mar-tin de Vergas» وكان الهجوم المدفعي شديدا ومنظما بشكل جيد بقيادة باربا روس خير الدين وأتباعه الأتراك الذين كانوا يفوقون الألف من غير العدد الكبير من جنود الجزائريين. وفي ظرف ستة أيام من القصف دمروا جزءا كبيرا من الحائط الرابط بين الموقعين المواجهين للأرض. كما أحدثوا عدة ثغرات في المواقع. وفي 21 ماي وبعد قصف مدفعي استمر خمسة عشر يوما، أمر هذا القائد الرياس بتحضير السفن الشراعية (غاليون) لامتطائها قبل فجر يوم الجمعة من لدن الأتراك لاقتحام الحصن في هجوم شامل عليه.

واندلع القتال بكل شجاعة من الجانبين ولكن المدافعين عن الحصن

معظمهم القليل والمصابين كلهم بجروح قتلوا أثناء الهجوم ولم يبق منهم سوى عدد قليل من الأحياء.

وبعد ثلاثة أسابيع من القصف أسّر حاكم الحصن كستيون مارتان فارغاس ومات تحت العصا.

بعدها، تم بناء مصدّة أمواج تربط صخور الجزائر بالساحل وبذلك ظهر إلى الوجود ميناء الجزائر الذي يمثل مأوى مأمونا نسبيا وأعطى للجهاد البحري دفعا جديدا على مدى ثلاثة قرون كاملة تحدت الجزائر خلالها أوربا. فبفضل موقعه الجغرافي، يتحكم ميناء الجزائر في طرق الاتصال بالحوض الغربي من البحر المتوسط. وكان قراصنة الجزائر أشد ما تخشاه البواخر التجارية بين اسبانيا وايطاليا.

الرد الاسباني العنيف على الجزائر: حملة شارل كان (1541)

التحق خير الدين بعد أن حارب في تونس (1534) وانسحب أمام تدخل شارل كان بالقسنطينية (1541) وهو يحمل لقب القائد باشا (الأميرال الكبير للأسطول العثماني). وقد ضاق صبر شارل كان من حملات المسلمين على السواحل الاسبانية والايطالية وعلاقاتهم مع فرنسوا الأول: على إثر عملياته «الاستسلامية» فجمع أسطولا وجيشا عرمرما قوامه 65 سفينة حربية و7000 رجل من البحارة و 591 سفيلة ناقلة و29000 جندي

(ألمان وايطاليين واسبان). وتم الانزال بنجاح على شاطئ الحامة شرق الجزائر.

واثر فشل الهجوم الأول أمر بحمل حطام جيشه على السفن في تاريخ 8 أكتوبر 1541 وتوجه بها نحو بجاية. فقد خسر 140 سفينة و10.000 جندي وأعطت هذه المقاومة المظفرة لمدينة الجزائر شهرة «القلعة الحصينة» التي لا تقهر. ومع ذلك فإن الصراع قد استمر بين الامبراطوريتين العظميين طوال القرن بكامله. وستؤدي الجزائر، وتونس وطرابلس (الغرب) دورا هاما إلى جانب الامبراطورية العثمانية في حربها الضروس مع خلفاء شارل كان.

معجزة عصا الوالي دادا

يرتبط اسم الوالي دادا هذا الناسك التركي الأصل، الذي يوحي أسلوبه المأتمي أنه صوفي، بحدث من الأحداث البارزة في تاريخ مدينة الجزائر. ففي 23 أكتوبر 1541، أنزل شارل كان جنوده على الضفة اليسرى من نهر الحراش ثم توجه عبر السهل لتسلق كدية الصابون، ومنها كان يهدد بالاستيلاء على المدينة. وكان الجيش قويا جدا بما يعده في صفوفه من جنود اسبان وايطاليين وفرنسيين وألمان. ويقال أن أهل مدينة الجزائر كانوا يفكرون في التسليم عندما سار الوالي دادا في شوارع المدينة ليرفع من معنويات الأهالي ودخل البحر حتى بلغ الماء حد حزامه ثم ضرب بعصاه

التي يحملها في يده فثارت زوبعة مهولة ... والبقية معروفة. فقد نزل مطر غزيرة (حسب) ادعاءات الاسبان - وهبت ريح ثلجية شلّت محاصري المدينة ولم يتمكنوا من الحصول على المؤونة.

حملة شارل كان ضد الجزائر 1541

سبب الحملة: وقائعها ونتائجها(*)

والسبب قدومه أنه عمّر مركبا من مراكبه وأوسقه بالمال والسلعة وبعثه إلى وهران فأخذه ريس من رؤسا الجزائر واسمه كجك علي ودخل به إلى الجزائر بعد ما وقع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسا عظيما مع جملة الرؤساء ودخل في شهرة عظيمة ثم أن لجك علي أحضر هذا الريس إلى حسن آغه خليفة خير الدين وقبّل يده وكشف عن رأسه وبقي داهشا من الهيبة فسأله حسن آغه عن أخبار بلاد النصارى فقال له الريس أن سفينة تركتها تريد القدوم إلى بجاية فعند ذلك أمر حسن آغه أن تجهز له أغربة فتجهزوا في أسرع وقت فساروا إلى طلبها إلى نواحي بجاية وكمنوا في موضع يقال له الخش والمنقار وكان من جملة رؤساء الجزائر كجك علي المتقدم الذكر فطلعت لهم تلك السفينة ذاهبة إلى بجاية فقربوا منها وشرعوا في قتالها وكانت هذه السفينة في غاية الاستعداد للقتال فلم تزل مع أجفان المسلمين في أخذ ورد إلى أن وقعت فيها النار فالتهبت في أطراف السفينة فعجز الكفار عن

اطفائها فألقوا أنفسهم في الماء فالتقطهم المسلمون من البحر واطفوا النار فعند ذلك رجع الرؤساء إلى الجزائر وهم فرحون بهذا الجفن ودخل الجزائر في شهرة كبيرة وفرح به حسن آغه غاية الفرح وأمرهم بانزال ما فيها من الغنيمة فأنزلوا الكفار وأحضروا بين يديه ومعهم رئيسهم وكانوا في حال طلوعهم إلى دار الامام تصفّف لهم النساء والصبيان وأهل البلد ليتفرجوا فلما وصلوا بهم إلى حسن آغه أمر بهم إلى السجن المعد لذلك فلما سمع بهم صاحب اسبانية بما تم على هذين الجفنين وكان أهل طاعته قد ضجوا إليه بالشكوة مما يفعلون أهل الجزائر بهم خصوصا أهل السواحل منهم بحيث أنهم قالوا للطاغية إما أن تكفينا أمر الجزائر وإلا نعطوا الطاعة لصاحبها فشرع في الحركة إلى الجزائر واطلق النداء في سائر أقطاره بذلك فانحاشت إليه جيوشه أفواجا أفواجا وزخرت إليه جيوشه وعساكره أمواجا أمواجا فوصل خبر عمرته إلى حسن آغه خليفة خير الدين فصدّق بذلك ولم يكذّب ثم أخذ في حركة عرس لأجل تزويج ولده ... أدار وجهه إلى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو فبنا أسوار المدينة وأصلح ما انهدم منها ونصّب عليها المدافع وعلى سائر الأبراج وعين أربعمائة أسير من الكفار لهذا البناء ثم أنه بعث إلي شيخ المدينة وأمره أن يرفع إليه حساب رجال كل حومة من الجزائر ففعل ذلك شيخ المدينة ومع ذلك فأخبار العمارة تتوارد في كل وقت على أهل الجزائر فأمر حسن آغه بقطع أشجار البساتين، كلها خوفا من النصارى أن يستتروا بها عند القتال وأول مما برا هو في بستانه فلم يترك فيه شجرة فبينما هو في يوم من الأيام جالس في دار الامارة إذ

ـر واطفوا النـ
، ودخل الجزائ
ـل ما فيها من
ـكانوا في حال
البلد ليتفرجو
ذلك فلما سمع
ـعته قد ضجو
لسواحل منه
نعطوا الطاعة
ـر أقطاره بذلك
ساكره أمواجـ
ـمدّق بذلك ولـ
ـ إلى تحصين
ـا انهدم منها
ـ من الكفار
ـاب رجال كل
ـة تتوارد في
ـساتين، كلها
ـو في بستانه
ـر الامارة إلى

ـخل عليه حارس البحر الذي يقال له صاحب الناظور وأخبره بأن عمارة
ـنصارى قد أتت وهي عمارة كبيرة أخذت وجه الماء كله وسترته وشرعت في
ـعدها فلم أقدر فتشوش نظري من ذلك لكثرتها فعند ذلك عيّن حسن آغه
ـجملة من الخيل فصعدوا إلى جبل أبي زريعه ليأتوا بتحقيق العمارة فرجعوا
ـإليه وكل واحد منهم يقول لم أقدر على احصاء ما رأيت العدد كثير لا يصل
ـإليه الادراك. فعند ذلك أمر حسن آغه سيدي سعيد الشريف وكان هو شيخ
ـالمدينة أن يوجه رجالا من أهل المدينة المذكور. وعين الرجال للأبراج
ـوالأسوار ونصبوا رايات الاسلام عليها ووزع حسن آغه رجاله على أبواب
ـالمدينة بطوايف من العسكر فعيّن لباب عزّون رجلا من أعيان العسكر واسمه
ـالحاج مامي وكان مذكورا في الشجاعة فقام بما عيّن له وأما حسن آغه
ـفقام في حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه إلى العدو برا وبحرا ومعه
ـجماعة من العسكر وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو وألويته المنصورة تخفق
ـعلى رأسه وجعل على باب الوادي (هذا الحصن) مدفعا عظيما يدهش
ـالانسان عند صيحته وتزهق النفس من دفعته وجعل من هذه الحصن إلى
ـالقصبة قائدا ومعه طائفة من العسكر واسمه القائد حسن وعيّن لحراسة باب
ـالوادي رجلا اسمه القائد يوسف ومعه جماعة من العسكر وعيّن معه ثلاثة
ـمن القياد اسم أحدهم سافر وجعله في برج من الأبراج وقائد آخر اسمه
ـصلان عيّنه لقاع السور والقائد الثالث اسمه رمضان فأقامه قريبا منه في
ـبعض النواحي وأما لجك علي وحيدر فإنه أقامهما في باب الجزيرة ومعهما
ـقبطان السفن واسمه خضر وجملة من رؤساء البحر. وأما أهل الجزائر من

العسكر والأندلس والبلدية فإنهم داروا بأسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب.

وأما عمارة النصارى وكان ظهور العمارة يوم الأربعاء في آخر الشهر من جمادى الثانية فبقي منه ثلاثة أيام سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة 27 جمادى 2 سنة 948. وفي يوم الخميس وقت العصر رست في جون تم نتفوس الموالي للجزائر مهو فيقال أنهم لمارسا وسقط بعض من رايتهم في البحر والمسلمين ينظرون إليهم فحصل لهم تعاول وعلموا أنهم منصورون عليهم. وكان نزول العدو إلى البر يوم الأحد قبل الزوال بشيء قليل فنزل سلطان اسبانية ودارت عليه عساكره ويقال أن عدّتهم تسعين ألفا فأراد المسلمون أن يمنعوهم من النزول إلى البر فرمت عليهم السفن بالمدافع من البحر فأوسع لهم المسلمون المجال. حتى تمكنوا من النزول وبات العدو ليلة الاثنين بقرب البلد في موضع يقال له الحامة وكان زعيم من زعماء الترك يقال له الحاج باشا فعزم أن يضرب على العدو ليلا ففتح له أبواب المدينة وأخذ الراية في يده وخرج معه جماعة وافرة من المسلمين وكان خروجه من المدينة لما بقي الربع الآخر من الليل فلم يشعر العدو في منزله الذي نزل فيه وكان الفصل شاتيا (شتاء) لأنهم وصلوا في شهر أكتوبر في أيام قاسم كول الا والمسلمون قد خلطوهم ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ورشقوهم بالسهام فحصلت فيهم ضجة عظيمة فانتبه ملكهم مرعوبا من نومه وصاح برجاله وخواص وزرائه وقال هؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنهم لا يقومون بحربنا انظرا ما عملوا فينا هذه الليلة ثم أن المسلمين رجعوا إلى البلد بعد

احل والسيوف
آخر الشهر من
تسعمائة 27
، في جون ت
من رايتهم في
نهم منصورون
ىيء قليل فنزل
ين ألفا فأراد
ن بالمدافع من
يات العدو ليلة
ن زعماء الترك
، أبواب المدينة
كان خروجه من
، الذي نزل في
يام قاسم كتخ
حدة ورشقوف
ن نومه وصاح
نهم لا يقومون
إلى البلد بعد

منهم خلقا كثيرا فلما كان يوم الاثنين تحركت النصارى إلى المدينة
الطاغية حتى قربوا الأسوار وهم يزعمون في انفرتهم والويتهم
عليهم فخيل لأهل الجزائر أنهم نمل أسود قد ملأ الفضاء وكان فيهم
أربعة آلاف فارس فشرع في قتالهم من الأسوار بالمدافع وبنادق
والسهام وكان في ذلك اليوم تقدمت رجال من الأتراك إلى القتال
منهم شجاعة عظيمة منهم رجل اسمه الحاج باشه وآخر اسمه
مامي وآخر يقال له خضر وآخر يقال له الحاج بكير فقاتلوا قتالا
إلى الليل فرجعوا إلى رأس تفورة ونزلوا محالهم فاخذت تلك الوعود
وشرعوا في قتال المدنية وضبت عليهم مدافع المسلمين وخاب رجاؤهم
المدينة فصعدوا ألويتهم منشورة إلى الكدية المعروفة بكدية الصابون
شرعوا في قتال المدينة منها هذا وأهل الجزائر يرمون على العدو بالمدافع
من كل ناحية بأصوات الصواعق وربما وصلوا الرمي على أجفانهم التي في
البحر هذا ما وقع لهم من الحرب في يوم الاثنين وهو اليوم الأول الذي
تحركوا فيه إلى الجزائر. فلما كان يوم الثلاثاء أرسل الله تعالى في آخر
الليل ريحا عاصفا فقطعت حبال أجفانهم ونشروا صواريهم خوفا من الهلاك
هذا الريح في الزيادة فتشوّش الجنرال من ذلك واسمه اندريه وكذلك من
كان معه في الأجفان وساقت هذه الريح العظيمة التي أرسلها الله عليهم
جملة من أجفانهم إلى البر فعطبت على المطاحن وخرجوا منهم أسارى
المسلمون ومالت عرب الجزائر على أهل تلك الأجفان فاستأصلوهم قتلا
قتلوا. فلما رءا الطاغية ما حصل لأجفانه من الغرق والعطب انكسرت

بحوث - 5 -

شوكته واخمدت ناره وظهرت عليه مجايل الذل فخرج أهل المدينة صبيحة يوم الثلاثاء لقتالهم باجتهاد وعزم قوي وعلموا أن الله تعالى نصرهم على أعدائه فخالطوهم وقاتلوهم في تلك الأوعار فأتى وجوه العسكر إلى الطاغية وقالوا له أيها الملك قم بنفسك إلى الحرب فإن المحلة على أشرف الأخذ فعند ذلك خرج الطاغية والتفت عليه عساكره وأخذوا في القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين إلى رأس تفورة وجدّوا الكفار في قتالهم وتكالبوا عليهم فتقهقرو أيضا إلى موضع يقال له ملعب الكورة ثم إلى قنطرة الافران فلما راوا الكفار ذلك منهم تراكمت جيوشهم عليهم كالبحر الزاخر وصاحوا عليهم من كل ناحية وطالبوهم من كل دانية فتقهقر المسلمون إلى ناحية سيدي أبي التقي فعند ذلك صرخ المسلمون في وجوه الكفار وحملوا عليهم وضربوهم بالحجارة والنشاب وكان ذلك اليوم يسيل فيه المطر كأفواه الغرب فراجع المسلمون حمايتهم وحملوا على الكفار من كل ناحية فردوهم على أعقابهم إلى المحلة ورجع المسلمين إلى المدينة. ولما كان صباح يوم الأربعاء ظهر الكفار أنهم لا طمع لهم بالجزائر وأن الغنيمة أن ينجوا بأنفسهم فقربت أجفانه إلى البر ونزل الجنرال اندريه منها حزين فوصل إلى الطاغية في محلته واعطاه حق المبايعة وقال له أيها الملك ألم أحذرك من السفر إلى الجزائر فانظر عاقبة الأمر الذي كنت حذرتك عنه والآن قم اطلب النجاة لنفسك. فإن جلّ أجفاننا عطبوا على السواحل فكيف يكون رجوع هذا العسكر إلى بلادنا فها أنا أيها الملك اذهب إلى تمانتفوس انتظرك هنالك فبادر أنت ومن معك من المعسكر بالرحيل لتركب في الاجفان الباقية وتخلص إلى بلادك. فعند ذلك رجع

الطاغية عن الجزائر ونزل على وادي الحراش وكان قد أجهدهم الجوع فأكلوا ثلاثمائة من الخيل وباتوا تلك الليلة والمطر يتراكم عليهم والأعراب والقبائل يضربون فيهم بالمكاحل والأحجار ويلتقطون في السعي. فلما كان يوم الخميس نظر الطاغية إلى الوادي فرآه حاملا فهالته رؤيته فاستشار رجاله كيف يحتلوا على القطع إلى الناحية الأخرى فعقدوا صواري سفنهم المنعطبة على الساحل وقطعوا عليهم، فلما قطعوا إلى الناحية الأخرى هجمت عليهم فرسان العرب أيضا وصاحوا عليهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ولم يزل الطاغية يقرسان العرب تطاعنهم إلى أن وصلوا إلى تماتنفوس وأقام فيها أياما إلى أن خمد هيجان البحر فركب فيما بقي من الأجفان وسافر إلى بلاده وهو لا يصدق النجاة بنفسه. وخلّف كثيرا من الاغربة والاجفان الرقاق وكثيرا من الأجفان العظام والعشريات والفرقطات ومدافع عظام وخلق كثيرا من الرجال والنساء والصبيان التي أتى بها فإنه لم يذهب واحد منهم وعدّتها ألفان وثلاثمائة وأما خيله لم يذهب منها واحد سوى الذي مات في الحرب والذي كليه وحاصل ما خلفه لأهل الجزائر مال لا يحصى.

كمل تاريخ النبلادور حين أتى الجزائر في المرة الأولى وكتبته من مجلد فيه تواريخ بخط عجمي».

وكان خير الدين لما سافر من الجزائر إلى اصطنبول ترك بها نائبا عنه كما تقدم وكان اسمه حسن آغه وكان رجلا عاقلا حازما سديد الرأي جيد التدبير وكان له حظ من العلم والصلاح كريم النفس سخيا بالمال باذلا

للمعروف يراعي العلماء والصلحاء وأهل الخير مع العدل الشامل والاهتما
بأحوال الرعية الكامل ولذلك تفرس فيه خير الدين فجعله نائبا عنه لما احتوى
عليه من هذه المناقب العظيمة فصارت له بذلك محبة عظيمة في قلوب أهل
البلد وكان أنشأ أحدى وثلاثين غلياطة بعد انتقال خير الدين من الجزائ
فاشتدت بذلك وطأته على أهل اسبانية واحتوى على الكثير من أجفانه
وعاث في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعله بهم خير الدين أو أكثر
فرأى الطاغية أن يتوجه إلى الجزائر بتلك العمارة التي أسلفنا ذكرها وأخفى
هذه الخبر مكيدة منه وهي عادة باقية عنهم إلى الآن إذا وجهوا عمارة إلى
ساحل من السواحل فإنهم لا يفشون خبر سفرهم إلا في اليوم الثالث بقرأة
الرسم الذي يوجهه معهم طاغيتهم وكان الطاغية بعث إلى صاحب بلاد
الجنويز يأمره بتجهيز ما عنده من الاجفان واعدادها للسفر ووجّه
بالعمارة إلى بلاد جنوة فاجتمع العمارتان هنالك وكان عدد ما فيهما من
الاجفان أربعمائة وقيل أربعمائة وخمسين جفنا وكان عدد المقاتلة خمسة
ألف ولما تهيأ له ما أراد من تجهيز هذه العمارة سافر بهما بنفسه إلى
الجزائر فأرسى بجون تمانتفوس يوم الخميس ليلتين بقيتا من شهر جمادى
الثانية سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وكان إرساؤه وقت العصر وخيل لأهل
الجزائر حين طلعت هذه العمارة عليهم أنها جبل يسير في البحر فحين
أرست بذلك الجون خيّل لهم أيضا أن جبلا استقر هنالك وحصلت بذلك
ضجة عظيمة لأهل البلد لأنهم لم يروا مثل هذه العمارة سابقا فعند ذلك جهز
حسن آغه أهل المدينة ونصّب ديوانا عظيما فيه علماء البلد وصلحاءه

ـامل والاهتما ـشائخهم وجعل يسكّنهم ويطيب نفوسهم ويهون عليهم أمر هذه العمارة
عنه لما احتوى ـو مع ذلك يستشيرهم وينظر ما يتفقون عليه من الأمر ومن جملة ما
في قلوب أهل ـطيبهم به تسكينا لروعتهم قد وردت العمارة في زمن عروج رايس وفي زمان
ن من الجزائر ـير الدين باشه فلم يخف عليكم ما هيأ الله للمسلمين من النصر على عدو
من أجفانهم ـدين وكيف رد الله الذين كفرا بغيظهم ولم ينالوا خيرا وكذلك هذه النوبة إن
الدين أو أكثر ـشاء الله ومع ذلك يأهل الجزائر فقد تعين الجهاد علينا معشر المسلمين لا
ذكرها وأخفى ـعرض الحياة بل نريد بذلك اعلاء كلمة الله وتحصيل درجات الشهادة فقد
وا عمارة إلى ـال تعالى في حق الشهداء «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل
الثالث بقرأة ـحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين
صاحب بلاد ـم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وإن كنا في قلة
فر ووجّه هو ـدو في كثرة فقد قال الله تعالى «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة والله مع
ما فيهما من ـصابرين» وقد وعدنا الله سبحانه وتعالى باحدى الحسنيين أما الظفر وأما
قاتلة خمسين ـشهادة وقد كتب الله علينا الموت وختم علينا الفنا فلأن يموت الانسان
ا بنفسه إلى ـجاهدا صابرا بايعا نفسه من الله خير له من أن يموت حتف أنفه فقد قال
شهر جمادى ـصلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف وقد ورد أن سيوف
ر وخيل لأهل ـجاهدين معلقة في العرش ويالها من كرامة وقد ساق الله الجهاد إلى
البحر فحين ـلامنا وأكرمنا بهذه الكرامة العظمى فهنيئا لمن سقاه الله كأس الشهادة
حصلت بذلك ـختم له شرابها ونحن هذه المدينة مبغناها من الكفار سابقا وكذلك لمنعها
عند ذلك جميع ـحقا إن شاء الله تعالى فلا يتم للكفرة فيها عرض بحول الله وقوته وغاية ما
وصلحاءهم ـتأتى لهم أن يطاولونا ونطاولهم وتأتينا في خلال ذلك نصرة من سلطاننا

الأعظم ومن خير الدين باشه. فحصلت لأهل الجزائر قوة عظيمة بكلام حسن آغه ووطنوا أنفسهم على جهاد العدو فعند ذلك فتح خزاين السلاح ووزعه في أهل المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص فعند ذلك أخذوا في الدعاء إلى الله تبارك وتعالى والتضرع إليه سبحانه في نصرهم على عدو الدين وجعل حسن آغه في كل برج من أبراج الجزائر الطبول والانفرة فهدرت تلك الطبول وزعقت تلك الانفرة حتى عمت آفاق الجزائر ونصب الويته المظفرة على تلك الأبراج وعلى أسوار المدينة وأما النصارى فإنهم شرعوا في النزول إلى البر وانزلوا جميع آلاتهم الحربية وصنعوا متراسا هايلا وحين رأى الطاغية استعداد أهل البلد لقتاله أستضعف عقله وقال لخواصه انظروا إلى صاحب الجزائر كيف حدثته نفسه بقتالنا ومدافعتنا عن أخذ البلد وهل هي إلا تحت أيدينا فكيف يقاتلني هذا الرجل مع كثرة عساكري وهل هي إلا في شرذمة قليلة من الأتراك وطائفة من أهل البلد لا خبرة لهم بالقتال كان من حق هذا الرجل أن يطلب الأمان لنفسه ولمن معه لا بد له أن يستولى على الجزائر ويخرّبها حجرا حجرا ويمحوا أثر الاسلام منها وكتب في أثناء ذلك كتابا إلى حسن آغه يقول فيه:

أيها الرجل أنت خديم من خدام ياربرشه وأنا ملك صبانية بأسرها وجميع بلاد النصارى تحت طاعتي فكيف تحدث نفسك بمقابلتي أما تعرف أني استوليت على مدينة تونس وازعجت منها باربروشه لا يصدق النجاة نفسه وهي أعظم من الجزائر شأنا وأحصن منها بنيانا وما أقمت عليها إلا مدة قليلة حتى دخلتها عنوة بسفني وخرج منها سيدك هاربا فتحقق أن هذه

يمة بكلام حسن [illegible] تملكها كما سلكت مدينة تونس كيف وقد قدمت إليها بنفسي أيمكن
سلاح ووزعه في [illegible] أن أرجع إلى بلادي ولم أحصل على الجزائر وإن لم يتأت لي أخذها في هذه
ذلك أخذوا في [illegible] أطاول حصرها شتاء هذه السنة فمعي من المال والزاد ما يكفي هذه
سرهم على عو [illegible] العساكر الذين معي وإن احتجت إلى المدد فبلادي قريب فكل ما أحتاج إليه
لطبول والانفرة [illegible] حصلتي في أقرب مدة وقد أعطيتك الأمان هذه المرة فإن قبلته فيها وإن لم
جزائر ونصب [illegible] وشرعت في الدفاع عن المدينة وارهقك قتالنا إلى طلب الأمان منا فإنا
نصارى فإنه [illegible] لك فانظر لنفسك ودبر على من معك فإنك إن عاندت ورفعت رأسك
سنعوا متراس [illegible] شل إلى ما دعوتك إليه أمرت العسكر يدفعون على المدينة دفعة واحدة
ف عقله وقال [illegible] حجرا حجرا ويقتلون كل من فيها من كبير وصغير وها أنا قد
ومدافعتنا عن [illegible] أشرت إليك قالوا واتي رسول اللعين بهذا الكتاب ظهرا في نخوة زايدة
جل مع كثرة [illegible] عظيمة لعزة مرسله. فوصل إلى حسن آغه ودفع له كتاب الطاغية فلما
ن أهل البلد لا [illegible] أمر أن يكتب إليه كتابا يقول فيه: يا كلب النصرانية كيف حدثتك نفسك
ه ولمن معه لا [illegible] ملك الملوك وأنك في مقام السلاطين العظام الذين دنت لهم الدنيا وهل
أثر الاسلام [illegible] إلا كلب من كلاب النصارى أضعف ما في بلاد البربرية من القلاع لا
[illegible] على أخذها فكيف بمدينة الجزائر ولو سمع بك سيدنا السلطان الأعظم
[illegible] إليك عبدا من عبيده مع شرذمة من عسكره يستأصلك ومن معك ومع
سرها وجميع [illegible] فإن في عسكر الجزائر ما يقابلك وسترى عاقبة أمرك فاجهد جهدك غير
ا تعرف أني [illegible] ولا مسدس وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وقد اسدلينا بكتابك على
النجاة نفسه [illegible] عقلك فإن الانسان لا يفتخر بشيء حتى يفعله وقد أتيتم إلى هذه المدينة
ليها إلا مدة [illegible] مرتين مرة في مدة عروج رايس ومرة في مدة أخيه خير الدين باشه وقد
حق أن هذه

سوّد الله وجوهكم في المرتين وهذه المرة كذلك إن شاء الله. وختم الكتاب وأعطاه الرومي الذي وجه به الطاغية فلما وصل به إلى الطاغية وكان الكتاب باللسان التركي فأمر أن يترجم له فحين فهمه استشاط غيظا وغضبا وقام اللعين وقعد لهذا الكتاب وأمر بنصب المدافع على المترس موالى المدينة بالمحل الذي يقال له كدية الصابون وهو المعروف بمحل برج مولاي حسن في زماننا فعند ذلك دبّر حسن آغه مع أهل المدينة أنهم يخرجون من المدينة ليلا ويهجموا عليهم في محل نزولهم لينتهزوا بذلك فيهم فرصة ويكسروا شوكتهم بذلك فصوب العسكر وأهل المدينة رأيه. فاختار من عسكره ستمائة مقاتل من الرجال المعدودين لمثل هذا اليوم وجعل معهم ألفي فارس أمثالهم في النجدة والقوة فلما كان الربع الأخير من الليل فتحوا أبواب المدينة وخرجوا إلى النصارى من ناحية واحدة فلما قربوهم كبّروا بصوت عال ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة وكان الكفار بين نايم وسكران وناعس فاعتقد النصارى لعنهم الله أن المسلمين خالطهم فأخذوا سلاحهم وجعلوا يقتلون بعضهم بعضا والمسلمين على بعد يواصلون الرمي عليهم لم يزل ذلك دأبهم إلى أن أنبلج صباح هذه الليلة فعند ذلك شرع النصارى في الرمي بالمدفع على المسلمين من أسفنهم ليردوهم عن إخوانهم الذين في البر فعند ذلك رجع المسلمون إلى المدينة وافتقد الكفار بعضهم بعضا من الصيحة التي وقعت عليهم بالليل فوجدوا عدة القتلى أكثر من ثلاثة آلاف فانكسروا لذلك وحصل لهم حزن عظيم بسبب من قتل منهم وحصل الطاغية بذلك غيار عظيم فعند ذلك هاج اللعين واشتد غضبه وأمر بنصب المدافع

وختم الكتا... التي مدفع وشرعوا في الرمي على المدينة يقاتلونهم على الأسوار ثم أن
ة وكان الكتا... الله سبحانه وتعالى تدارك أهل الجزائر بلطفة الخفي فهاجت الرياح وساقت
ا وغضبا وقا... السحاب أمثل الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتد
موالى المدي... أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تتكفا يمينا وشمالا
لاي حسن في... والبحر في الزيادة والأمواج تتراكم كالجبل فغرق كثير من سفنهم
من المدينة ليلا... وعطب على الساحل سفن كثيرة فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا وخصوصا
سروا شوكتهم... من نزل في البر منهم فإنهم خيل لهم أن القيامة قد قامت من كثرة الرياح
ستمائة مقات... والأمطار والصواعق والرعود فلم يقدروا على الرمي بمدفع واحد ولا بمكحلة
ل أمثالهم في... فحين رأى حسن آغه ما هيأه الله لأهل الجزائر من نصرته خرج في جماعة
لدينة وخرجوا... عسكره وأهل المدينة طالبين النصارى فوقع بينهم قتال عظيم ودافع
، ورموا عليهم... النصارى عن أنفسهم دفاعا قويا وكان مع الطاغية لعنه الله عشرون ألف
تقد النصارى... حمايته لم يباشروا قتالا فهجم عليهم المسلمون وقاتلوهم قتالا عظيما مقدار
تلون بعضهم... ساعتين وتأخر المسلمون قليلا إلى المدنية بعدما وفوا ذلك اليوم حقه من
دأبهم إلى أن... جهاد الكفار فدخلوا المدينة وألوية النصر تخفق عليهم ومات في هذا اليوم
بالمدفع على... من الكفار قتلى أزيد من أربعة آلاف واستشهد من المؤمنين مائتان ختم الله
عند ذلك رجع... تعالى لهم بالسعادة ولما رأى الكفار ما حل في هذا اليوم من سيوف
ة التي وقعت... المسلمين مع ما هم فيه من شدة البر وتراكم المطر الغزير وعطب مراكبهم
لذلك وحصل... تضاعف حزنهم واشتد قلقهم وعلموا أنهم تورطوا في ورطة عظيمة وكانوا
ر عظيم فعند... حين نزلوا إلى البر لم ينزلوا معهم من الزاد إلا ما يكفيهم مدة قليلة ظنا
وكان عدتها... منهم أنه لا يحول بينهم وبين سفنهم حابل ولما نزل بهم هذا الطوفان العظيم

بحوث - 5 -

وهاج البحر ذلك الهيجان الذي غلب مراكبهم حيل بينهم وبين الزاد فبقوا ثلاثة أيام في البر في جوع عظيم حتى آل بهم الأمر إلى أن ذبحوا خيلهم وأكلوها وكانت عدة ما غرق من اجفانهم المعدة للحرب وحمل الزاد والآلات الحربية مائة وثلاثون جفنا ودخل أربعة منهم إلى المرسى وخلص من أسارى المسلمين من هذه الاجفان المنعطبة ألف وأربعمائة وخمسون من الترك والباقون من العرب بعضهم من أهل الجزائر وبعضهم من أهل تونس وأما ما تبقى من اجفانهم فإنهم لما رأوا ما حل بالاجفان الأخرى من الغرق والعطب على الساحل علموا أن ذلك غضب الله عليهم فحاولوا الدخول إلى مرسى المدينة فلم يقدروا على ذلك فتوجهوا إلى جون تمنتفوس والحال على ما هو عليه من تراكم الأمطار وهيجان الأمواج والبحار ولما رأى الطاغية لعنه الله ما حل له من هذه المصيبة العظمى حيث عكس الله آماله ونكس أحواله ولم يظفر من أهل الجزائر لأنه انقطع عن بقية اجفانه فعند ذلك خلف سايرا ما نزل به من الانقال والآلات الحربية من المدافع والسيوف والرماح وتوجه فيمن معه من عسكره المنخذل إلى ناحية تمنتفوس طالبا للنجاة بنفسه ليتوصل إلى الركوب في اجفانه التي هنالك وحين علم أهل الجزائر بفرار الطاغية خرجوا في اثره من المدينة يصفعون أقفيتهم بسيوفهم ويقتلونهم في كل نجد وغور إلى أن الجوءهم إلى وادي الحراش وكان الواد حاملا من كثرة المطر المتراكم فلما أرهقهم المسلمون بالطلب رموا بأنفسهم في الوادي فغرق عامتهم فيه وأما الطاغية فإنهم صنعوا له جسرا على الوادي من صواري اجفانهم المنعطبة على الساحل فجاز عليها على عدوة الوادي الأخرى بعد

، الزاد فبقوا ... ومشقة عظيمة وكان عدة القتلى بسيوف المسلمين في هذا اليوم اثني
ذبحوا خيلهم ... عشر ألف فيقال أن فرائيس الكفرة وفرائيس خيلهم ملأت ما بين الجزائر
الزاد والآلات ... والناس شرقا وغربا شرشال لا يحصيهم إلا مهلكهم وكان دخولهم في
، من أسارى ... سفنهم للانصراف يوم الأربعاء ثاني عشر رجب وسافروا يوم الخميس ثالث
ن من الترك ... عشر منه بعدما حرق السفن التي أيس منها وترك المرجو منها ففسد بعضها
ونس وأما ما ... في أثناء السفر وأما خيله التي جاء بهم فهي أربعة آلاف فرس لم ير منها
فرق والعطش ... فرس مات بعضها برماح المسلمين والبعض أكلوها من الجوع الذي وقع لهم
، إلى مرسى ... وكتوا بعضا بأيديهم لضيق سفنهم عن حمل رحالهم فكيف يحملون خيلهم
، على ما هو ... يسافر اللعين إلى بلاده بالخيبة الكبرى وفرج الله سبحانه وتعالى عن أهل
غية لعنه الله ... الجزائر ويقال أن الطاغية فقد ويقال أن بقية اجفانهم عطبت كلها حين
، أحواله ولم ... توجهوا إلى بلادهم ثم أن حسن آغه كتب كتابا إلى الديوان العالي يخبرهم
ف سايرا ما ... ما كتب الله سبحانه وتعالى لأهل الجزائر مع عدوهم وكيف نصرهم عليه
وتوجه فيمن ... يعين للسفر غلياطة ووجهها بهذا الكتاب إلى حضرة السلطان وأما المدافع
سه ليتوصل ... التي خلفها النصارى يقول أن عدتها مائتان وقيل مائة فإن المسلمين حملوها
زار الطاغية ... وزعوا بها الحصون الحربية وسائر أسوار المدينة فوصلت هذه الغلياطة
في كل نجد ... بالكتاب الذي وجهه حسن آغه فأخذه خير الدين وأوصله إلى السلطان وبالغ
كثرة المطر ... في الثناء على حسن آغه فعند ذلك وجه إليه السلطان بخلعة سنية وأمر كريم
وادي فغرق ... يتضمن نيابته بالجزائر من قبل السلطان وأنه من جملة وزارية ووجه بخلع
من صواري ... أعيان أهل الجزائر وأما الرسل الذين توجهوا إلى السلطان فإنه واصل
لأخرى بعد ... عليهم الانعام وجزل لهم الجوايز والبشارات فسافروا إلى مدينة الجزائر

بحوث - 5 -

فوصلوها واجتمعوا بحسن آغه فنصب ديوانا عظيما قرأ فيه أمر السلطان الذي بعثه وألبس فيه الخلعة التي أتت إليه وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشرق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة بقدرة العزيز القهار انتهى».

ثم خرج سكان الجزائر ودحروا من كان عدوهم أقرب إلى البحر، وكانوا من الايطاليين الذين تراجعوا في فوضى للالتحاق ببقية الجيش.

وانكسر الجيش الهائل الذي كان يستند إلى أسطول قوامه أكثر من خمس مائة باخرة، على الشواطئ أو غرق في عرض البحر.

إنه لحدث عظيم. فالكارثة التي تعرض لها شارل كان أحبطت على مدى فترة طويلة عزيمة أوربا. وصارت الجزائر التي اشتهرت بعد ذلك بالمدينة التي لا تقهر على طريق الازدهار الذي لم تكن تحلم به حتى ذلك الوقت. وجنى الوالي دادا ثمرة ذلك. فقد توفي عام 1554، فقد حقق واقعته التاريخية وما كان يرويه عنه أهل الجزائر يجعله جدير بكل الاحترام والتقدير من الجميع حيث كان في أوقات المحن يحدد بعصاه مصير المدينة كلها.

ومع ذلك فإن الصراع استمر بين الامبراطوريتين العظميين طوال القرن بأكمله، وستؤدي الجزائر وتونس وطرابلس دورا هاما إلى جانب الامبراطورية العثمانية في حربها الضروس مع خلفاء شارل كان.

وذلك فقد ارتأينا من المفيد أن نتطرق إلى تاريخ مساهمة بلاد المغرب في «الوفاق الأوربي» في القسم الأول من هذا العمل.

تنظيم دولة الايالة

جاءت هذه الدولة على غرار الدولة العثمانية في شكل «دولة دركية» تدعمها الميليشيا.

البايات والباي لاربايات والباشوات والدايات:

إن هذه الكلمة التي نلقاها في كل صفحة من صفحات تاريخ الايالات العثمانية في الجزائر وتونس وطرابلس تستحق أن تشرح في البداية. وأن الألقاب التي ترد في تعييناتهم خاصة بالامبراطورية العثمانية. وقد ظلت بعضها باقية، وإن أصبحت تعيينات شرفية فقط إلى غاية شهر جويلية 1952 في مصر. وكانت هذه الألقاب مرتبطة بأولئك الذين فرضوهم بعد نجاحهم في اعتلاء سدة الحكم عن طريق الدسائس وفي الأخير سادت في الجزائر ألقاب الدايات ابتداء من سنج 1671 والبايات في تونس والباشوات في طرابلس.

وحسب «الموسوعة الإسلامية» يمكن التوضيح بصورة تبسيطية أن كلمة "Bey" باللغة العثمانية شملت في النهاية كل ما تشمله السلطة من مهامي عمدة القرية إلى والي المقاطعة.

وكان كبار حكام روميليا (تركيا الواقعة في الجزء الأوربي) والأناضول (مناطق تركيا الواقعة في آسيا) وافريقيا الشمالية يحملون لقب باي لرباي، وهو ما يعادل في العربية أمير الأمراء. وكان أول باي لرباي في افريقيا الشمالية هو خير الدين وآخرهم هو علج علي (1587).

ويبدو أن اسم الداي الذي كان يلقب به رؤساء ودولة الايالة في الجزائر في أواخر القرن السابع عشر كان قد طبّق على أحد صغار الضباط من الجنود الانكشاريين.

أما عن لقب «الباشا» كان أعلى المراتب الرسمية. فقد كان في الأول ينفرد به باي لرباي والوزراء ثم صار يشمل أمثالهم من الموظفين وولاة المقاطعات خاصة.

وقد صارت كل من الجزائر، وتونس وطرابلس تسمى «باشاليك» بعد حذف لقب باي لرباي وتعويضه بلقب الباشا لثلاث سنوات في أواخر القرن السادس عشر. وكان لقب الباشا مرفوق لزوما باللقب الشخصي مثلما هو الحال في ألقاب النبلاء في الغرب، ولكن الفرق يكمن هنا في أن اللقب يأتي بعد الإسم: مثل الباي حسين باشا، والداي عثمان باشا.

الحكومة: باي لرباي والوزراء

كان يوجد على رأس الايالة شبة «باي لرباي» يعينه سلطان القسطنطينية، وكانت سلطته تمتد على الجزائر وتونس وطرابلس، فيما

يضطلع في بقية الامبراطورية العثمانية بهذه المهمة باي لرباي في الأناضول (الجزء الآسيوي من تركيا) وباي لرباي في روميليا (الجزء الأوربي من تركيا).

ولم يتم التخلي عن لقب باي لرباي واستبداله بلقب الباشا إلا في عام 1587، بعد موت باي لرباي علج علي الذي أصبح كبير أمراء البحر في الأسطول العثماني.

تتمثل صلاحياتهم الأساسية في العدالة وتسيير شؤون الدولة. وكان الباي لرباي يستقبل في الفترة الصباحية المتظلمين من الموظفين ويفصل في أهم الخلافات، وفي فترة ما بعد الظهر يتحادث مع كبار الموظفين ويستقبل ممثلي القوى العظمى.

وفي مجال السياسة الخارجية كان الملقبون بباي لرباي يدعمون الحرب على الأسبان وملوك تلمسان وعلى الدولة الشريفية في المغرب الأقصى. ويطبقون التعليمات الواردة من القسطنطينية حتى عندما لا يوافقون عليها كما هو الحال في هذين المثالين:

- احترام البواخر الفرنسية بعد الاستسلام.

- التنازل لفرنسا عن احتكار صيد المرجان على سواحل القالة والقل وعنابة.

وكان الوزراء يختارهم باي لرباي، ونذكر من بينهم على الخصوص:

الخزناجي أو المكلف بالخزينة.

الأغا أو القائد الأعلى للقوات البرية.

وكيل الحرج أو وزير البحرية.

بيت المالجي، وهو مدير مال داره.

خوجة الخيل وهو قابض الضرائب.

ونادرا ما يجتمع الباي بوزرائه، فقد كان يتصل بهم بواسطة ترجمان القصر، وكان يساعدهم الخوجة والشواش.

وقد عاش رؤساء دولة الايالة في الجزائر حتى بداية القرن التاسع عشر في «الجنينة» المتكونة من مجموعة واسعة من البنايات والحدائق التي تحيط بها دار عزيزة (والتي صارت فيما بعد دار الاسقفية) ودار حسين (التي أصبحت قصر الشتاء) ودار مصطفى باشا (التي أصبحت «المكتبة الوطنية» والتي كان مدخلها يقع في شارع باب الواد حاليا).

مجلس الضباط: الديوان

يساعد رئيس الدولة على غرار القسطنطينية مجلس الأعيان المنتمين إلى الجيش، ومن بين هؤلاء. كان الباي يختار وزراءه وهو غير ملزم بما يقرره الديوان الذي يؤدى دورا استشاريا أما طريقة المداولات في الديوان، فإنها

بعد أن يستمع الضباط الأربعة الملقبون بـ «باشولداد» لمقترح الآغا، يردّدون بدورهم المقترح بصوت عال ومسموع على كل أعضاء الديوان دون الخروج من صفهم. بعدها تنتقل الكلمة من ضابط إلى آخر حتى آخرهم ثم تعود بضجيج غريب عندما يظهر أن الأمر لم يجد استحسانا في المجلس، ويقدم الآغا استنتاجاته حسبما يكون عليه رجوع الكلمة أي في صالح المقترح أو ضده. إلا أنه في هذه الفوضى نجد آراء لا تراعى، غالبا، الأوامر ولا القوانين. فأعضاء المجلس ملزمون بالفصل دون تمييز بين الصواب والخطأ، لأن معظم كبار المستشارين ينتمون إلى أهل الحرف، فهم لا يقرؤون ولا يكتبون.

الإدارة

تتمثل مهمتها في قمع الاضطرابات واستغلال الأهالي.

التقسيم الإداري:

كانت الجزائر وما جاورها تحت السلطة المباشرة لباي لرباي، وتمثل دار السلطان. وكان باقي البلاد مقسما إلى ثلاث ولايات، على رأس كل منها باي يعينه رئيس دولة الايالة حيث نجد:

بحوث - 5 -

الانضباط

كانت الثورات لدى الجنود المشاغبين المقتنعين بصلاحياتهم كثيرة. حيث كانوا يقلّبون القدرة النحاسبة الكبرى آنذاك التي يجتمعون حولها في أوقات الأكل ثم ينتشرون في المدينة. إلا أنهم كانوا يخضعون لقوانين خاصة و لذلك فلا يفصل في أمرهم سوى قوادهم. وكانت الاعدامات تتم في كنف السرية.

مجلس ضباط الميليشيا: أو الديوان

كان هذا المجلس مكلفا - قبل كل شيء - بمصالح جماعة الانكشاريين ولم يلبث أن مال إلى ممارسة السياسة وأداء دور استشاري لدى الباي وفي الوقت ذاته زاد نفوذ آغا الميليشيا في دواليب الدولة.

الخلاصة أن الميليشيا هي الركيزة الثانية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية، فمن ناحية طريقة تجنيدها وتنظيمها نراها وكأنها حقيقة جزء من تركيا البعيدة انتقل ليستقر في أرض افريقيا.

البحرية وحرب القرصنة:

بعض الاعتبارات العامة: القرصنة في القديم

كانت القرصنة من أعظم النكبات التي منيت بها القرون الوسطى وفترات من العصور الحديثة. فقد كانت القرصنة حركة رابحة ينجذب لها المسلمون والمسيحيون على السواء. ولقد وصف كثير من المؤرخين البحارة المغاربة

(المخزن) المعفاة من الضرائب، كانت تؤطر الأهالي الأصليين وتساهم في جمع الضرائب، ويمثل طواطؤها هذا عربون وفائها للسلطة.

وكانت السلطة المركزية في كل عام، تقوم باعداد ثلاث كتائب من الانكشاريين تضم كل منها مائتين إلى ثلاث مائة رجل، ويمكن دعمهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ويرسلون هذه المعسكرات المتنقلة الأول إلى تلمسان والثاني إلى نواحي عنابة وقسنطينة والثالث نحو الجنوب حتى حدود بلاد السود وقبل الصحارى. ويعرف الأهالي - تقريبا - متى يأتي إليهم هؤلاء المخزون المحنّكون الذين لا يرحمون، وقبل موعد وصولهم يعدّون رحالهم ويتركون خيامهم ويسوقون أمامهم مالهم من أنعام ويهربون به إلى الجبال حيث يوفر لهم المكان الأمل في قدرتهم على عدم دفع الضريبة في حالة إجبارهم على ذلك. ولذلك فإن هذه الدوريات لا تأتي إلا في مواسم الحصاد حيث يتم اشراك كل دوار حسب ما يراه جامعوا الضرائب فيه من ثراء، أو كثرة الأهالي. وفي حالة ما إذا تعذر عليهم جمع النقود، يسوقون أمامهم ماشية أهل الدوار وقمحهم، بل ويسرقون أولادهم أحيانا.

العدل

لم يختلط الأتراك بالأهالي في مدينة الجزائر. بل كانوا يسيطرون عليهم ويكتفون بأحكام القبضة عليهم، بفضل حاميات الجنود الانكشاريين المنتشرة

في المواقع الاستراتيجية كما أنهم يراقبون كبريات الطرق الجزائر - وهران والجزائر - قسنطينة، والجزائر - المدية، وكذلك الطريق بين الجزائر - سور الغزلان، وبوسعادة - بسكرة الذي يعتبر بوابة الجنوب.

وتم ارساء سياسة ضغط خفية على الرحل لمنعهم من الاستفادة من المراعي الواقعة في النواحي التلية.

وكانت سياسة باي لبرياي، وخلفه، على القوم، لا تمارس مع أكثر من سدس تراب دولة الايالة في الجزائر.

فقد كان أهالي الجبال والسكان الرحل في الهضاب العليا يعيشون في شبه استقلال، والأتراك أنفسهم لم يكونوا يعيرون كثيرا من الاهتمام لهم ويكتفون بطلب منهم ما يلي:

- دفع الضريبة.

- عدم عرقلة مرور الوحدات العسكرية وعدم التدخل في شؤون الدولة.

ومن الناحية العرقية فإن «الكراغلة» (من أب تركي وأم من الأهالي المحليين، أو من أم نصرانية مأسورة) لم يكونوا يعتبرون أتراكا ولا يستفيدون من الامتيازات المتصلة بهذه الصفة، وقد أدى ذلك إلى اندلاع عدة ثورات.

الميليشيا الانكشارية أو الأوجاق

كانت ميليشيا مدينة الجزائر، التي أدخلت في دولة الايالة على إثر إلحاقها بالامبراطورية العثمانية من قبل خير الدين، تتمتع بنفس الامتيازات الممنوحة للانكشاريين التابعين لسلطان القسطنطينية وكان قوامها حوالي ستة وخمسين ألف رجل. وكانت تمثل في نفس الوقت جيشا وحرسا للحاكم وأداة قمع.

التجنيد

كان يؤتى بالانكشاريين أو «اليولداش» من آسيا الصغرى بين أكثر طبقات السكان فقرا وحرمانا، ولكن بمجرد نزولهم في الجزائر يعتبرون أنفسهم «ملوكا من العظماء». وعندما يجندون في تركيا لا تقدم لهم أي ضمانات أو تعهدات. لكن بمجرد أن تنتصب الخيمة يمكنهم أن يأتوا لتناول الأكل في المساء وفي الصباح إلى أن يحين وقت الابحار. ويحدث أحيانا أن ضابط التجنيد يوزع عليهم بعض قطع من النقود لشحذ عزائمهم، ويصوّر لهم في أجمل صورة ما ينتظرهم في الجزائر مع الفوائد الجمة التي سيجنونها من حرب القرصنة على المسيحيين والسلطات والثروات المتصلة بالمهام السامية التي سيتولاه بدوره من خلال خدمته. ويتم التكفل بالمجندين من أكل وشرب حتى الوصول إلى الجزائر حيث يسجلون في كشف المجندين

ويعينون في كتائب.

ويتم تجنيد الانكشاريين في الولايات العثمانية

- منطقة أوربا في:

Roumélie، Morée، ومدن: Tékirdag، Silivri، Malacara، Démotika،

و Varna، Vidin، Sofia.

- جزر بحر إيجه:

Ténédos، و Mytilène، و Eubée، Cos، Crète، Chypre، Rhodès.

- منطقة آسيا:

Soma، Manisa، Megri، Konya، Isparta، Brouse، Pergame، Smyrne.

وقدر Venture de Paradis عدد المجندين من آسيا الصغرى ما بين 7 و8 آلاف جندي في الفترة الممتدة بين 1786-1824.

وقد كان بايات لرباي الجزائر يكلفون مجموعة من الأشخاص المقربين منهم للقيام بتجنيد جنود جدد، أو يعتمد ممثلين دائمين على سواحل آسيا الصغرى للقيام بالمهمة. ويتم نقل المجندين بواسطة سفن جزائرية، أو

ايطالية، أو انجليزية أو فرنسية. ويذكر الأستاذ أندري ريموند، أن عدد الانكشاريين المجندين من الأناضول بلغ 20.000 في القرن 17 و10.000 في القرن 18 لشعب لا يتجاوز عدده 100.000 ساكن، وبالتأكيد يقصد هنا عدد سكان مدينة الجزائر.

معدات المجندين الجدد

يعطى المجند قميصا من القماش الخشن ومشدا وسروالا قصيرا من القطن ووقاع من الجوخ الخشن وشاشية أو قبعة على النمط الجزائري وحمارا أحمر يستخدم كحزام وزوج حذاء وغطاء من الصوف قصير وضيق.

ذلك هو جهاز المعدات التي يتلقاها الانكشاري من البايلك مرة واحدة. ولا يمده البايلك بالأسلحة التي لا يزود بها، فهو يتلقى في شكل استعارة بندقية «وبطاقات» وزوج مسدس، وستقطع ثمنها من أجرته إذا لم يرجعها. وإذا كان المجند قد عيّن في إحدى المعسكرات أو الحاميات البعيدة عن مدينة الجزائر يعطي زوجا من النعل لتصليح حذائه الذي يتعين أن يشتريه من ماله الخاص. كما أنه ملزم بتقديم البارود ويعطى لذلك فقط رطلا من الرصاص لكل ومنه يضع الرصاصات.

أجرة المجندين

يتلقى الجنود الغير المتزوجين أجرتهم العادية، إضافة إلى ذلك فإنه
إيوائهم في ثكنات كبيرة مريحة تسمى بـ «المخابئ» وهي مزودة بحنفي
المياة الجارية (مع العلم أن الأهالي لا يسمح لهم بادخال المياه إلى بيوتهم
يشربون من الخارج) حيث يتوضأ الجنود، ولكل ثلاثة جنود غرفة كبير
ويخدمهم عبيد مأجورون من الدولة.

ويتلقى كل جندي أربعة أرغفة في اليوم، وهذا يزيد بكثير على حاجاتهم
أما عن اللحوم فلهم امتياز يتمثل في امكانية شرائه بثلث السعر المعروض
للجمهور. إلا أن هذه الامتيازات المختلفة لا يتمتع بها سوى الجنود من غ
المتزوجين. أما الآخرون فهم ملزمون بالاعتماد في أكلهم ومسكنهم على
أجرتهم فقط، وكانت أجرتهم تدفع بالقصر أمام الباي الذي يساعده القا
الأعلى للجيش (الآغا) والديوان، وكان الانكشاريون يتلقون في كل عيد ها
أو في كل مرة يتغير فيها الداي زيادة في أجرتهم. وكانت مدة الخدمة تدو
عاما واحدا متبوعا بإجازة بنفس المدة، ويستمر التجنيد على هذا المنوال
دام المجند قادرا على الخدمة.

المسكن

كانت كتائب الانكشاريين في الجزائر موزعة على سبع ثكنات، وكا
بامكان الجنود المتزوجين أن يبقوا ساكنين في المدينة. وتجدر الاشارة هنا

النادي العسكري (سابقا) ونادي المجاهدين (حاليا) والواقع قرب المسرح الجزائري، في ساحة بورسعيد، كان موقعا لثكنتين قديمتين للجنود الانكشاريين، على طول حصن باب عزون. وفي المدن الهامة من البلاد كتلسان والمدية وبسكرة، مثلا، تمت إقامة حاميات للجنود الانكشاريين. وكان الانكشاريون من الوحدات المتنقلة والمعسكرات مكلفون بقمع الاضطرابات وجباية الضرائب.

المعسكرات

الحساب لا يتم بالفيالق أو الكوكبات وإنما بالمعسكرات التي تضم عددا من الخيام. وتأتي هذه الخيام في شكل مكور ويمكن أن تأوى (30) رجلا بكل راحة. ويربط الخيل على أعمدة من الرجل وتعلق عدة الفرس في الخيمة. وكل خيمة تتكون من عشرين مقاتلا إضافة إلى بعض «المور Maures» المكلفين بسحب الأمتعة الخ ...

وتوفر الحكومة ستة أحصنة أو بغال لنقل كل خيمة - للمؤونة واللباس والذخيرة والمرضى - وتسبق الأمتعة عادة الجنود بحيث يجد هؤلاء - حين يصلون إلى مكان معسكرهم - طبخهم جاهزا فيتركون آنذاك إلى الراحة. ويحرص الأتراك على توفير أحصنة احتياطية في مؤخرة القافلة لاستبدال الأحصنة التي قد تموت أو تجرح أثناء السير.

بحوث - 5 -

الانضباط

كانت الثورات لدى الجنود المشاغبين المقتنعين بصلاحياتهم كثيرة كانوا يقلّبون القدرة النحاسبة الكبرى آنذاك التي يجتمعون حولها في الأكل ثم ينتشرون في المدينة. إلا أنهم كانوا يخضعون لقوانين خاصة فلا يفصل في أمرهم سوى قوادهم. وكانت الاعدامات تتم في كنف ال

مجلس ضباط الميليشيا: أو الديوان

كان هذا المجلس مكلفا - قبل كل شيء - بمصالح جماعة الانكش ولم يلبث أن مال إلى ممارسة السياسة وأداء دور استشاري لدى البا الوقت ذاته زاد نفوذ آغا الميليشيا في دواليب الدولة.

الخلاصة أن الميليشيا هي الركيزة الثانية التي تقوم عليها الجزائرية، فمن ناحية طريقة تجنيدها وتنظيمها نراها وكأنها حقيقة ج تركيا البعيدة انتقل ليستقر في أرض افريقيا.

البحرية وحرب القرصنة:

بعض الاعتبارات العامة: القرصنة في القديم

كانت القرصنة من أعظم النكبات التي منيت بها القرون الوسطى و من العصور الحديثة. فقد كانت القرصنة حركة رابحة ينجذب لها المس والمسيحيون على السواء. ولقد وصف كثير من المؤرخين البحارة ال

(بصيغة الجمع) بأنهم أقبح من خاض لجج البحار من الأمم والشعوب حتى
خلق هذا الوهم بأذهان الكثير من الناس وتبلور في صورة حقيقية واقعية مع
أن ذلك يتنافى مع تطور الأحداث قبل وبعد القرن 16، الذي يمكن أن يعتبر
في نظرنا بمثابة حد فاصل في عصر العلائق الطيبة الوثيقة في افريقيا
وأوروبا والعصور التي غمرته الآلة واستغلال الاستعمار الناشئ.

هل القرصنة حكر على المسلمين وحدهم؟

لقد حاول مؤرخان اثنان يجمعان بين النزاهة والضلاعة رسم لوحة جلية
للعالم عن السمات البارزة التي طبعت نشاط القراصنة خلال العصور
الوسطى. وفي غضون فترة غير قصيرة من العصور الحديثة وهاذان
المؤرخان هما:

«سيسموندي Sismondi» صاحب كتاب تاريخ الجمهوريات الايطالية.
و«لاطرى Latrie» في مصنفه حول صلات المسيحيين بالعرب في الشمال
الافريقي. وقد عمد كلاهما إلى دحض الافتراءات المروّجة ضد العرب في
شأن الفضائع المرتكبة باسم القرصنة البحرية.

وقد تساءل لاطرى عن مدى التبعة التي يتحملها كل من المسيحيين
والمسلمين في أعمال القرصنة خلال الفترة التي عقبت غزوات العرب والتي
يمكن أن توسم بأنها عهد سلام وتجارة آمنة. فلاحظ أن احصاء الجرائم
التي كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لها بين القرنين الحادي عشر

والسادس عشر من شأنه - لو تم - أن يحمّل المسيحيين قسطا كبيرا جدا من مجموع عمليات النهب والتخريب البحرية التي ينسب المؤرخون ويلاتها إلى عرب افريقيا. فإذًا بيّن التاريخ أن المسيحيين كانوا أكثر من غيرهم تضررا من القرصنة الاسلامية فما ذاك إلا لكون تجارتهم كانت أوسع وشواطئهم أشد عرضة للاكتساح ولأن تاريخهم العام أوضح وأجلى عند مؤرخي الغرب من التاريخ العربي. فقد شهد المؤرخون المسيحيون بالمصائب الكبرى التي ارتكبتها قراصنتهم.

وقد أكد لاطري من جهة أخرى أن الاعتداءات والفضائع المنسوبة للمسيحيين في علاقاتهم مع العرب كانت أبلغ مما اقترفه العرب، وضرب لذلك أمثلة تصوّر مدى تبعة المسيحيين في قرصنة البحر الأبيض المتوسط خلال العصور الوسطى.

ذلك أن جزر المتوسط مثل سردانية، وكورسيكا، وصقلية والباليار، ما كاد العرب يزخرحون عنها حتى أمست ملجأ لقراصنة أوربيين لا يقلون خطرا عن قطاع الطرق الكبرى وقد كانت أرباض مدينة كاكلياري أوكارا للصوص، وأضحت مالطة في القرن 13، مركزا لحملات شنها رجل من جنوة مشهور في تاريخ الملاحة. كما يذكر التاريخ «هوك فير» من مرسيلية الذي شكل شركة لصوص مع أميرال صقلي، وأصبح بين الرقيق من المسلمين في المدن الأوربية ظاهرة مألوفة. ويكفي أن نذكر بقصة آلاف الفلاحين والملاكين العرب الذين اختطفوا من قابس (تونس) عام 1284 م، وجربة عام 1310 م.

برباريس الغرب عام 1355 م. وبيعوا بعد ذلك كالبهائم الخسيسة في أوربا.

تلك خلاصة قسط التبعة التي تحمّلها المسيحيون في عمليات البحر الأبيض، والآن نتطرق إلى القرصنة في شمال افريقيا التي انقلبت من صفقة مربحة الربح إلى عملية أصبحت عنوانا عن رد فعل وطني أو سياسي ضد حملات الاسبان والبرتغاليين للأراضي العربية الافريقية وعمليات التعذيب التي ذهب ضحيتها مآت آلاف الأندلسيين من المسلمين واليهود.

نعم ان القرصنة في المياه العربية الافريقية لم تصدر دائما عن ملاحين من الأهالي، بل كانت في الغالب من فعل أخلاط المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام لغاية بعد أسرهم. أو الأندلسيين الذين طردهم الاسبان من الأندلس فالتجأوا إلى المدن الساحلية المغاربية متحفزين للوثوب على العداة. وسأقدم بعد قليل قائمة بقراصنة من الجزائر يحملون اسم البلد فقط. فكلهم أجانب.

أعود وأقول أن لاطري كتب يقول: في نفس الوقت الذي كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية تعاملهم السلطات المغاربية بحسن نية، استداموا نهب القراصنة المسلمين في البحار بالرغم عن المعاهدات والاتفاقات ...).

أما الأب "Pere Dan" فعكس لاطري، فقد قال: «بأنه لا ينبغي أن نستنكر ما يقوم به القراصنة المسيحيون ضد خصومهم في الدين» وبذلك يتأكد أن القرصنة المسيحية اتخذت مظهر حملة صليبية ضد الإسلام.

ثم أن شهادات النصارى تبين في حد ذاتها الشر الذي كان يقوم به قراصنة من أصل مسيحي.

كانوا يطلقون على اللصوص البحريين القرصان وأصل هذه الكلمة إيطالي ومنه أخذت كلمة "Corsaire" الفرنسية التي صارت في العربية قرصانا. وهناك نوعان من جوابي البحار أحدهما المعروف في الفرنسية بالبيراط "Les Pirates" وهم اشتات من مختلف الأقطار الأوربية برزوا اللصوصية البحرية جهارا ولا يحترمون حتى سفن بلدانهم الأصلية وينظر إليهم الناس بما ينظرون به إلى اللصوص البريين.

أما النوع الثاني فهم المعروفون بالقرصان في العربية أو "Les Corsaires" في الفرنسية. ولم يكونوا في أول أمرهم لصوصا وإنما كانوا أرباب بواخر تجارية يسلحونها بإذن حكوماتهم لتستطيع حماية نفسها من أولئك اللصوص، فكان الناس ينظرون إليهم نظرة احترام لاشتغالهم بالكسب المشروع وان السفن الغير المسلحة تأمن جانبهم وترجو حمايتهم ضد "Les Pirates" اللصوص الصرحاء. لكن مع طول المدة، أصبح هؤلاء القرصان أنفسهم ينتحلون الأسباب للسطو على السفن التي تضعها الأقدار في متناولهم، ولكنهم مع ذلك يحترمون سفن بلدانهم الأصلية، وحيث أنهم أوربيون مسيحيون فمن العبث أن ينتظر منهم الإنسان هوادة مع سفن البلاد الاسلامية.

ثم أنه بعد اكتشاف أمريكا سنة 1492 م وأصبح الطريق بينها وبين اسبانيا مطروقا صار مغامروا القراصنة الذين كان معظمهم من الهولنديين

والانجليزيين يغيرون على السفن الاسبانية فاقتنصوا منها عددا ضخما. ثم بعد مدة أيضا، انضم إلى هؤلاء جماعة من اللصوص يعرفون في الفرنسية باسم "Les Flibustiers" كانوا يجوبون خلال جزر "Les Antilles" طوال القرن 17 وأوائل القرن 18. ثم انضمت إليهم طائفة أخرى من اللصوص كانوا يطاردون الثيران الوحشية في أمريكا للحصول على جلودها التي كانت لها قيمة عالية، فكانت الحكومة الاسبانية تطاردهم واتخذوا مقرا خاصا في جزيرة "La Tortue" أو السلحفاة قرب هايتي، فأصبحوا لصوصا أقوياء أو ربما هاجموا حتى بعض السفن الحربية. ثم صار رؤساء الدول يستغلونهم للهجوم على خصومهم فلا يكاد سوء التفاهم ينشأ بين دولتين حتى تواجه إحداهما رسائل الكفالة والضمانة إلى بعض جريئي القراصنة تحرضه على مهاجمة سفن أعدائها وتبيح له بيع أسلابها علانية كغنيمة حربية مشروعة، بحيث أن أولئك القراصنة يعرفون نذالة حرفتهم اللصوصية في نظر الناس فقد كانوا يعتزون بهذه الرسائل الملوكية التي تدل عليهم تسترا ولو رقيقا من النظام والمشروعية وتحمل مسؤولية ما يقترفون، فكانوا يجعلون لأولئك الرؤساء حظا ولو رمزيا من مستفاداتهم. وقد تكون في أحضان هؤلاء القراصنة رجال بحريون عظماء استفادت أممهم الأصلية من مواهبهم واستندت لهم المهام الكبرى في أساطيلها، نخص منهم على سبيل المثال Jean Bart الفرنسي (1651 - 1707) الذي كان يعمل في أسطول هولندا ولكن لما دخلت مع فرنسا، تركها والتحق بأسطول بلده. وDu Gay-Turbin (1673-1736) الذي كان يتمتع من جنوده بمثل ما كان يناله حكماء

القواد من المحبة. وClaude Forbin (1656-1733) الذي كان له شغوف عظيم فيما خاضته فرنسا في عصره من حروب حول أمريكا، وSurcoul (173-1827) الذي اقتنص لبلاده كثيرا من السفن الانجليزية.

ولما استفحل أمر القراصنة وأصبحوا يزاحمون الدول انعقد في سنة 1856 م مؤتمر دولي في باريس تقرر فيه باجماع نسبي إلغاء القرصنة ولم يشذ فيه عن هذا الالتزام إلا الولايات المتحدة الأمريكية واسبانيا والمكسيك. فأصبحت بذلك القرصنة بمعناها الحقيقي قانونيا.

أما قراصنة الجزائر فلا شك أن الذي دفعهم إلى ذلك إنما هو مقاومة العدوان بمثله لحماية الثغور الجزائرية، وقد حاول الأوربيون الصاقهم بتهم النهب والسلب والإرهاب.

أصل الرياس

ان جزائر الرياس أكثر المدن شهرة ... إنها جزائر القراصنة التي تختلف مع جزائر المرتدين من النصارى مثلما لاحظه في أواخر القرن السادس عشر القس هايدو، حيث أعرب عن غيظه من العدد المتزايد من المرتدين النصارى في الجزائر، كما عبّر عن سخطه تجاه «هذه الحثالة من المسيحية» ويضيف «أنه يمكن القول بكل أسى أن كل القراصنة هم مسيحيون مرتدين وكلهم يعرفون جيدا الأراضي والشواطئ المسيحية» وأكد مؤلفون آخرون هذا

الشهادة. كما أن وثائق الأرشيف تمكن من العثور على أن موطن أشهر الرياس هي جزيرة كورسيكا أو صقلية أو كالابريا.

ثم أن بلدان المشرق كان لها مجندون في صفوف رياس الجزائر.

النّهاب والقراصنة

يتبغي التمييز حسب الأعراف والاتفاقيات بين الناهب "Pirate" الذي يسلب في البحار لحسابه الخاص دون أن ترخص له حكومته، والذي لا يعد سوى لصّا يحمل سلاحا، وبين القرصان الذي هو على العكس من ذلك مقاتل نظامي وربما يمكن أن يطلق عليه اسم «قنّاص البحار» فهو يهاجم سفن أعداء الأمة التي يأخذ منهاعمولة منتظمة والتي يجب أن يحمل علم هذه الأمة. أما بشأن المنتمين إلى الجزائر فإن الفرق بينهما صعب لأنهم كانوا أعوان الدولة.

كيف يصير المرء ناهبا:

لا يمكن أن يتصور المرء ناهبا من بلاد شمال افريقيا متطوعين ينزلون في ميناء الجزائر للانضواء أو تحت لواء بحرية دولة الإيالة. فهناك العديد من السبل كانت تؤدي إلى النهب:

- الأطفال الذين كانوا يختطفون على سواحل أسبانيا أو ايطاليا يمكن تدريبهم في مدرسة القراصنة مثل حسن، الإبن الذي تبناه خير الدين والذي دافع عن مدينة الجزائر ضد حملة شارل كان سنة 1541، وقع اختطافه وهو صبي من جزيرة ساردانيا حيث ولد.

- حسن فنزيانو، الولد البحار على متن باخرة من البندقية وعبيد علج علي الذي اعتقه وتقلد مختلف مناصب الدولة وصار باشا على الجزائر ثم أميرال بحر في الأسطول العثماني.

- البحارة الذين يقعون في الأسر ويأتي بهم القراصنة، كان بإمكانهم شراء حريتهم مقابل قبولهم ممارسة عمل القرصنة بدورهم. وكانوا يأتون لسكان بلاد شمال افريقيا بخبرتهم وبمعارف تقنية ثمينة، فعلج علي الذي يعد ثاني شخصية مرموقة بعد خير الدين كان كلبريا (من إحدى مناطق ايطاليا).

وكان قد أمضى أربعة عشر عاما في الأعمال الشاقة لدى السلطان قبل أن يعتنق الإسلام. فصار باي لرباي في الجزائر، ثم أميرال البحرية في الأسطول العثماني، وقد ترك سرفانتس الذي كان عبدا عنده صورة مهمة عنه، سنورد فيما بعد.

القراصنة الأوربيون الذين أتوا بمحض إرادتهم إلى شمال افريقيا، كانوا يمثلون أقلية نذكر من بينهم الانجليزيين إدوارد وأوفرن Edward, Uvert

وعلى الخصوص المغامرة الغريبة التي قام بها «سيمون دنسا Simon Dan- وهو فلامان، جاء إلى الجزائر عام 1606، وعلّم قراصنة دولة الايالة الجزائرية فنون بناء أنواع جديدة من السفن، وعند انتهاء مهمته كقرصان، عاد إلى فرنسا برخصة من هنري الرابع وأخذ معه عشرة من رجال الدين اليسوعيين الذين فداهم. وعليه يمكن القول، إذن، أن القرصنة تجدد بنفسها العاملين فيها.

العلج علي في نظر سرفانتس

يروى سر فنتاس في مؤلفه "El Cautivo" كيف وقع أسره في معركة "Le pante" وكيف اقتيد إلى القسطنطينية مع أسرى باي لرباي العلج علي وبقي هناك إلى عام 1574، حيث أرسل إلى الجزائر بعد ذلك.

«كان سيدي يدعى أوشالي فرطاس وهذا ما يعني باللغة التركية «المرتد الأقرع» لأنه كان فعلا مرتدا وأصلعا. ومن العادة لدى الأتراك اعطاء أسماء مستعارة مستمدة من أحد العيوب أو من إحدى الخصال التي تكون لدى الانسان. وهذا ناتج من أنه لا يوجد من بينهم سوى أربعة ألقاب نسب من الدار العثمانية. أما الآخرون فإنهم يتلقون ألقابهم وأسماءهم مثلما سبق ذكره أي إما من العيوب الجسمية أو من المواهب الذهنية. وهذا الأصلع كان جذافا طيلة أربعة عشر عاما كعبيد ولم يرتد ويتخلى عن معتقده إلاحين بلغ

أربعا وثلاثين سنة من العمر. وقد أظهر شجاعة فائقة دون أن يلجأ إلى الوسائل الدنيئة التي كان يركن إليها المقربون من السلاطين الأتراك للحصول على الترقية. صار داي الجزائر ثم أميرال البحرية. وهي المسؤولية التي تأتي في المرتبة الثالثة في هذه الامبراطورية. كان رجلا طيبا من الناحية الأخلاقية ويعامل عبيده معاملة تتسم بالانسانية. وقد بلغ عدد العبيد الذي كان في حوزته ثلاثة آلاف. وقد جرى توزيعهم بعد وفاته وفقا لما أوصى به بين السلطان الذي هو أيضا الوريث الطبيعي لكل الأموات. ويتقاسم التركة مع الذرية الآخرين الذين يتركهم المرحوم وبين المرتدين التابعين له. أما أنا فقد كنت من نصيب أحد المرتدين (هو حسن فنزيانو - باشا الجزائر) الذي أسره علج علي حين كان بحارا على سفينة. وكان يحبه لدرجة أنه صار من أحد مقربيه المدللين قبل أن يصبح من أقسى المرتدين على الإطلاق.

الطبائع المشتركة عند القراصنة الجزائريين

إن هذه الجماعة المتعددة من حيث جنسياتها كانت غريبة عن البلاد التي تمارس فيها نشاطها. وكان القراصنة، الذين اعتنقوا الاسلام في معظمهم من النصارى. ففي عام 1588 كان في الجزائر 24 غليونة (سفينة شراعية صغيرة) من أصل 38 يقودها هؤلاء النصارى الذين جاءوا تقريبا من كافة الأمم النصرانية. وكان على هذا النحو من انطبق عليهم اسم أتراك من حيث المهنة. وكان قواد البوارج أو الرياس منظمون في جمعية أو طائفة، وسرعان

البحة. وكان قواد البوارج أو الرياس منظمون في جمعية أو طائفة، وسرعان ما أصبحت لها مكانة كبيرة في شؤون دولة الايالة. وتعاظمت مع ازدهار القرصنة.

تنظيم القرصنة: السفن ومالكوها

كان القراصنة في القرن 16 يستعملون على الخصوص أنواع المراكب التالية:

- السنبك وهو مركب صغير بثلاث صوار وثلاثين مجذافا بطاقة تسع 200 برميل. وعلى متنه طاقم من 30 إلى 200 رجل مسلحين بمدافع يتراوح عددها بين 14 إلى 24 مدفعا.

- الغليونة أو القادس الصغير وفيها من 12 إلى 19 مقعدا وتحمل من 20 إلى 130 رجلا ومن 2 إلى 10 قطع مدفعية.

- الشراعية وهي سفينة وسيطة بين السفن المجذافية والسفن الشراعية ولها صار واحد ويكون الجذافون فيها من 8 إلى 16 يمسك كل منهم بمجذاف واحد.

وفي 1581م كانت الجزائر حسب هايدو، تملك 35 غليونة و25 فرقاطة (سفن صغيرة بمجاذف) في شمال افريقيا.

- جعفر مرتد من أصل مجري له سفينة من نوع 24 مقعد.
- مامي أرنوت، قائد البحر، مرتد من أرنوت Arnaute، يملك سفينة من نوع 22 مقعد.
- مراد فرانسيس، قبطان، مرتد، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- دالي مامي، مرتد يوناني، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- مراد رايس الكبير، مرتد ألباني، له سفينتين من نوع 24 مقعد.
- فيرو رايس مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- مراد رايس باقرا بيلوُّ، مرتد اسباني، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- عيسى رايس، تركي الأصل، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- أرابسا رايس، تركي الأصل، له سفينة من نوع 15 مقعد
- أميسا رايس، تركي الأصل، له سفينة من نوع 20 مقعد.
- مراد رايس الصغير، مرتد يوناني، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- سنان رايس، تركي الأصلي، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- يوسف رايس، مرتد اسباني، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- اجبالى، تركي الأصل، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- حسان، مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 28 مقعد.
- القايد داود تركي الأصل، له سفينة من نوع 20 مقعد
- القايد خضر، ابن مرتد، له سفينة من نوع 23 مقعد.
- القايد جيجر، تركي الأصل، له سفينة من نوع 22 مقعد.

- مرجامّى، مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- ماميدجا، تركي الأصل، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- القايد محمد، مرتد يهودي، له سفينة من نوع 15 مقعد.
- ماميدجا، مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- مامي رايس، مرتد من البندقية، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- مامي ڤاتشو، مرتد من البندقية، له سفينة من نوع 20 مقعد.
- مامي قورصو، مرتد من كورسيكا، له سفينة من نوع 20 مقعد.
- مامي كالا برس، مرتد من كالابرى، له سفينة من نوع 20 مقعد.
- بادوان رايس، ابن مرتد، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- قاضي رايس، ابن مرتد، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- دوناردى، مرتد يوناني، له سفينة من نوع 29 مقعد.
- جعفر مونتز، مرتد من صقلية من جبل ترايانا، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- حسان جينوس فورنارو، مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 15 مقعد.
- قارى رايس، تركي الأصل، له سفينة من نوع 18 مقعد.
- كور علي، ابن مرتد، له سفينة من نوع 22 مقعد.
- يوسف رمولار، مرتد يوناني، له سفينة من نوع 20 مقعد.
- جعفر، مرتد من جنوة، له سفينة من نوع 20 مقعد.

تنصيب الرايس

الرايس يختاره عموما الداي، وفي هذه الحالة يتم تنصيبه بالطريقة الآتية: يخبر الداي وزارة البحرية بالشخص الذي اختاره، وتعلن وزارة البحرية للرياس المجتمعين حسب العرف في الصباح أوامر الباي، ويدلي الرايس الجديد بتشكراته بقراءة فاتحة القرآن ويقوم بذلك أيضا كل الحاضرين ووزير البحرية بكل خشوع. ثم يذهب الرايس الجديد على متن باخرة تخصص له ويقوم على الفور برفع العلم فوقها مع اطلاق خمس طلقات مدفعية. ويلوح الرايس الآخرون كذلك بِعَلَمِهم ويحيّون زميلهم الجديد باطلاق خمس طلقات مدفعية.

طاقم السفينة والانضباط على ظهرها

يقول المؤرخ «غرامونت Grammont» إن الكبار كانوا يملكون سفن والتجار الصغار وأهل المدينة كانوا يشتركون في شراء وتجهيز سفينة على نفقتهم، وحتى النساء كنّ - حسب ما أورده القنصل شاكس Chaix - يبعن جواهرهن ليشتركن في عملية مصدر الأموال المستثمرة في القرصنة. أما الطاقم فكانت قيادة السفينة تتكون من:

- القائد أو الرايس ومساعديه وتقنيين أمثال:
- الربان الذي يقوم بتوجيه اقلاع السفينة.
- النجار، والجلفاط، والمدفعي، والمزودين فوهة المدافع، والجرّاح، والكاتب

أي من يقوم بمحافظة الحسابات وكلهم من النصارى المسلمين. وكان الطاقم يتكون في معظمه من العبيد المسيحيين. وكان بعضهم مكلف بتوجيه القلاع والآخرون يمثلون الجذافين على مقاعدهم. ومنذ زمن طويل لم يعد الرجال الأحرار يقومون بعمل الجذف فمعظم البحريات الأوربية كان يوجد في سفنها عبيد زيادة على المحكوم عليهم. وكانت الحياة في هذه السجون العائمة شاقة ومريعة سواء عند المسيحيين أو عند المسلمين.

وأن أخشى ما يخشاه الأسرى هو دون ريب معاناتهم في سفن الأتراك حيث تكون حريتهم مكبّلة ليل نهار، فأرجلهم تربط تحت حمل ثقيل من السلاسل الحديدية الغليظة. وتعاني أياديهم دوما شقاوة الجذف. ويلقى جسمهم - الذي يكاد يكون عاريا - ضربات العصا في كل وقت ولا تسمع آذانهم سوى السب والشتم الموجه إليهم. والاهانات التي تنزف القلب.

وألد ما يقتاتونه هو بسكوت قديم بدت عليه خضرة التعفن والماء.

وإذا حدث وإن لاحقت سفينة أجنبية سفنهم، يشتد الضرب على العبيد ليسرعوا في الجذف بكل قواهم للهروب من العدو.

عشية الإبحار

يقوم الرايس بتحضير سفن الابحار وجعلها في حالة جيدة، بواسطة عبيده وعبيد مالكي السفن والخواص الذين يضعون على متنها حتى يتم اشراكهم في اقتسام الغنائم المحتملة والتي يستلمون منها الجزء الأكبر.

وبمجرد أن يكتمل إصلاح السفينة تشحن على متنها المؤونة لشهرين كاملين وربما ثلاثة أحيانا. ثم يرفع القائد رايته ويطلق طلقة مدفع واحدة، وهي إشارة تدل على أن القرصان سيبحر في اليوم الموالي، حتى يتسنى للراغبين في المشاركة، سواء كانوا أتراكا أو من الأهالي أو غيرهم الاستعداد. فلا يرفض طلب أحد، ويزود كل تركي ببندقية وسيف، ولن يكون له كأمتعة سواء غطاء واحد، فالأهالي، الذين تقتصر مهمتهم على مساعدة مناورة المدافع فلا حق لهم سوى حمل «حايك» أو برنوس يستخدمونه كلباس وغطاء في وقت واحد.

ويكون قائد السفينة أو الرايس هو «الآمر بعد الله» على متن باخرته ويقول عنهم الراهب الاسباني هايدو «أنهم يعتنون بتنظيم سفنهم وترتيبها لدرجة أنهم لا يفكرون في غير ذلك. ولا يسمح لأحد، حتى ولو كان إبنا للباشا نفسه، أن يغيّر مكانه ولا أن يتحرك من الموقع الذي يكون فيه».

المؤونة

تشحن عموما على ظهر الباخرة مؤن لمدة خمسين يوما. وتتكون من بسكوت، وزيت، وخل وخضر ويخضع كل الموجودين في الباخرة من الرايس إلى أعضاء الطاقم لنظام غذائي قاس.

ونذكر هنا على سبيل المثال بعض الوجبات العادية:

القطور: خبز بالزيتون.

الغذاء: لحم يحضر بالطريقة التالية: يجفف اللحم تحت أشعة الشمس ثم يطهى في الزيت قبل أن يصبّر في مزيج من الشحم والزيت ثم يوضع في جرات. وتسمى طريقة التحضير هذه بـ «الخليع».

العشاء: كسكس بالحمص

الشروب: الماء عادة، ولكن ونظرا لسرعة تلوثه فإن البحارة يشربون وعلى نطاق واسع النبيذ، وحتى ماء الحياة.

أجرة القرصان

لم يكن أعضاء قيادة السفينة وبحارتها يتلقون أجورا، ولكنهم يتحصلون على مكافآت من الغنائم التي يستولون عليها. ويقول دان P. Dan أن ذلك يشجعهم على خوض المعارك التي لا يتحملون لها كثيرا ولو كانت لهم أجور مضمونة.

المعركة: الاقتراب ثم الاقتحام

تعتبر السفن الجزائرية أكثر خفة وسرعة وأحسن تسليحا من البواخر التي يهاجمونها وكانت استراتيجيتهم تقوم على استغلال عامل المباغتة وتنطوي على حيل عديدة مثل:

بحوث - 5 -

- استعمال رايات كاذبة، الهدف منها طمأنة ضحاياهم عند الاقتراب منهم. وهذه الحيلة ليست خاصة بالجزائريين وحدهم فقد استعملها الأوربيون، وكمثال على ذلك ما حصل للرايس حميدو سنة 1815 عند هجوم الأسطول الأمريكي عليه في مضيق جبل طارق حيث أمر قائد العمارة البحرية الأمريكية ستيفن ديكاتور، رفع الراية البريطانية لأن العلاقات الجزائرية البريطانية كانت مميّزة في هذه السنة.

- من الحيل الأخرى، الزعم بتفقد السفن للتحقق من حمولتها وهويتها.

- الهجوم في الصباح الباكر بعد انزال كافة الأشرعة. كما تجب الاشارة إلى الدور الهام الذي يؤديه الراصد، الذي يقوم من مكانه على سارية السفينة بتفحص الأفق. ومن ثم يقف الخصم عاجزا جامدا من جراء تخويفه ومباغتته بطلقة المدفع الانذارية وتسهل عملية الاقتحام.

مناطق العمليات

كان البحارة الجزائريون يقومون بحملاتهم خصوصا من شهر أفريل إلى أكتوبر دون أن تتوقف تماما في فصل الشتاء. ويمكن تصنيفها حسب مدى ويعد «مسرح العمليات» إلى فئات ثلاث:

- الغارات المفاجئة: على سواحل اسبانيا وإيطاليا وسردانيا. وتتم الغارات ليلا حيث يجد أهلها أنفسهم فجأة أمام أشخاص يرتدون سراويل

صيرة حمراء وقبعة بيضاء يصرخون في وجوههم «استسلموا أيها الكلاب» ويلتقطون معهم كل سكان القرية. كما أن الصيادين كانوا يمثلون فريسة سهلة ومنشودة. وهذه الغارات كانت من الانشغالات الدائمة في عهد شارل كان، حيث لم تفلح أية حيلة للوقاية منها.

- القرصنة في أعالي البحار

كان البحارة في الجزء الغربي من البحر المتوسط يمارسون نشاطهم في شكل مجموعات صغيرة من سفينتين وثلاث على أهبة الاستعداد للتعاون فيما بينها.

- الحملات البعيدة

هذه الحملات البعيدة بدأها دون شك الرايس مراد عام 1585 بشجاعة كبيرة. فبغليونات ثلاث انتقل إلى الأطلسي وأرسى في ميناء سلا (المغربية) التي كان يعتبر مركز نشاط القرصنة. وأغار على جزر الكناري، وأوقع في الأسر «300» شخص منهم زوجة الحاكم. وكان لهذه الحملات نجاح كبير في القرن التالي بفضل تقدم فنون الملاحة لدى البحارة الجزائريين.

وكانت مناطق Levantine الاسبانية تعاني عناء شديدا من الهجومات الجزائرية. وأقيمت أبراج المراقبة والحراسة لحماية السواحل. والانذار باقتراب السفن الجزائرية، ولكن ذلك لم يكن مجديا. فالسواحل خلت من أهلها، وكثرت الشكايات الواردة من المدن والموظفين والنواب في «الكورتس» وكثرت وعود الحكومة بشأن حراسة الشواطئ وحمايتها.

ونجد في كل صفحة من الصفحات التي كتبها المؤرخون الاسبان في عهد شارل كان، وفي كل حزمة من الوثائق، الإشارة إلى الخراب والدمار الذي أحدثته سفن المسلمين أو إلى قرب وصولها إلى الساحل الاسباني، ولعل أبرز ما كتب في هذا المجال هي الدراسات التي قام بها «كوسم باربال Cosme Parpal» حول جزيرة مينورقا في القرن 16، فقد سلط الأضواء على قصة هذه الجزيرة المؤلمة.

ولم يكن يشمل توسع الهجومات الجزائرية فقط شبه الجزيرة والجزر المجاورة، بل تعدى إلى سردانيا وصقلية ونابولي. وكان ضمان حرية الطرق البحرية التي تؤدي إلى بلدان ايطاليا أمرا لا بد منه للامبريالية الاسبانية منذ أن أصبح للملك الكاثوليكي مستعمرات في ايطاليا. وقد أبرز السير «لوسيان رومي Lucien Romier» عن جدارة أهمية هذه المسألة. وكتب أنه «لم يكن في استطاعة الاسبان أن يستثمروا في شبه الجزيرة» وبالتالي فقد كانت في ذلك «ضرورة حيوية تفوق التطلع إلى الهيمنة». ثم خلص رومي إلى القول: «ولذلك بذلت التضحيات الجسام لضمان ولاء أهل جنوة وفلورنسا ومن ثم جاءت حملة بروفانس الرامية إلى إنشاء طريق بري يربط Rossil-lon وLa Ligurée، وكذلك الحملات على الجزائر وتونس». وكان قطع الاتصالات البحرية بين شبه الجزيرة وايطاليا من أحد أهداف السياسة الفرنسية التي وجدت في الأسطول الجزائري نصيرا قويا وثمينا.

وكاد أن يتحقق لها ذلك لو لم تنقلب سياسة أندري دوريا André Doria

توزيع الغنائم

يعود للدولة من هذه الغنائم قائد السفينة المأسورة والربان والكاتب والتجار وكذلك المدافع والمؤن. ويعود لمالكي السفن الحطام والمعدات. ويأخذ الباي لرباي لحسابه الخاص 12٪ من البضائع والعبيد. ويقسم الباقي من الغنائم مناصفة حيث يؤول نصف منها إلى مالكي السفن والآخر للبحارة والجنود.

وفي هذه القسمة الأخيرة كان يؤول إلى الرايس 40 جزءا و3 أجزاء إلى البحارة وإلى الجند نصف الجزء. يضاف إلى ذلك النسبة المئوية التي تستقطع لتصليح الميناء والأرصفة وصيانة القبب. كما يوجد عدد كبير من الوسطاء الذين ينتظرون عشرهم كالشاوش والترجمان، وتاجر الأمتعة القديمة.

وكانت الغنائم التي يتعذر تسويقها إلى افريقيا توجّه نحو ليفورن. ثم تباع في أوربا، أما الغنائم التي تأتي من سفن تابعة للأمم وهي في سلام مع الجزائر فكانت تنقل إلى سلا، بالمغرب.

كانت القرصنة إذن عملية مثمرة وكانت الجزائر تستقبل بأفراح صاخبة قراصنتها المنتصرين. أما الأسرى فيصبحون منذ أسرهم عبيدا في الجزائر، وفي انتظار دفع فديتهم كانوا ينقلون إلى ساحة الباديستان (ساحة السمكة حاليا) حيث يعرضون ويباعون. وتقع هذه الساحة وسط مدينة الجزائر، وهي ساحة مربعة الشكل اعتاد الناس على الالتقاء فيها كمكان

للمبادلات والسوق. ويباع الأسرى في تونس وسلا وطرابلس ومدن أخرى مثلما هو الشأن في تركيا أيضا. ويباع الأسرى مع الحيوانات في المغازات والساحات العمومية. وينظر المشترون بكل إمعان إلى هؤلاء الأسرى ويخلعونهم ملابسهم دون حياء. إلى جانب ذلك يأمرونهم بالمشي والقفز والوثب بالضرب بالعصا لمعرفة ما إذا كانوا غير مصابين بمرض النقرش. وفي نفس الوقت يفحصون أسنانهم لمعرفة عمرهم وأنهم غير مصابون بأمراض قد تعيقهم وتنقص من خدماتهم. كما يتفحصون عيونهم وسيماتهم لاستنتاج ما قد تكون عليه طبائعهم حسنة كانت أو سيئة.

إن مصير العبيد المسيحيين في الجزائر نال نصيبا وافرا من الأخبار الدينية والتاريخية المثيرة بفضل رجال الدين المسيحيين المتواجدين في الجزائر في مهمات الفدية أو تقديم خدماتهم لأسراهم. أو عن طريق الأسرى أنفسهم بعد عتقهم. ولادراك هذه العملية اللا إنسانية يتعيّن وضعها في سياقها التاريخي. فالقوارب التي تسير بالمجاذف في البحر المتوسط كان يطرح تشغيلها مشاكل جديدة وخاصة فيما يتعلق باستجلاب الجذافين. وصار عمل الجذاف يضرب به المثل لأنه عمل لا يوكل إلى الرجل الحر، وبالتالي ظهرت ضرورة إيجاد رجال يخضعون مسبقا لمكانة العبيد سواء عن طريق الحرب أو عدالة المحاكم.

وهكذا، قام الاسبان باستعباد البربر المغاربة الذين كانوا يوقعونهم في الأسر في شمال افريقيا. وكان فرسان مالطة يلزمون أسراهم الأتراك بدفع

...ية أو يبيعونهم في ليفورن. حيث تتموّن أوربا بالجذافين على نطاق واسع. ...ضاف إلى ذلك تجارة الرقيق الأسود التي كانت تكفل بعض الازدهار ...وانئ الأوربية على الأطلسي طوال القرن السابع عشر.

ويذكر المؤرخون أن بحرية لويس الخامس عشر كانت تضم في صفوفها ...ي أواسط القرن 17 زيادة على المحكوم عليهم بالجذف عددا من العبيد ...حقيقيين الذين وقعوا في الأسر أو تم شراؤهم وعليه فإن الاسترقاق في ...الجزائر ليس سوى حالة خاصة لوضع مقبول عموما.

ويكتسي الاسترقاق لدى أغلبية الشعوب الإسلامية طابعا أبويا لا مكان ...يه للمعاملة السيئة. وتوصي الشريعة الاسلامية سيّد العبيد التحلي بالعدل ...والصبر والاحسان إلى من وضع مصيره بين يديه. ومن هذه التقاليد ...يستخلص أن الأسرى لم يكونوا يعانون سوى من عمل الجذف. عمل اقصاه ...خمسين يوما مرتين في السنة. ويقضون الباقي من وقتهم في زراعة البساتين ...المجاورة للمدينة أو في الأعمال المنزلية في منازل أسيادهم. وكانت لهم حرية ...التجوال نهارا ويطلب منهم الرجوع إلى المنزل قبل غروب الشمس. ...ويمارسون حرفا صغيرة مثل: سقاؤون، كتاب في السجون، جراحون، بائعو ...حلويات، وكان بعضهم يؤجر حانات ومطاعم شعبية أو داخل السجون حيث ...يبيعون فيها الخمور المستوردة لنزلاء السجون والزبناء الأتراك، والذين غالبا ...ما يقضون ليلهم داخل السجن من كثرة شرابهم.

ومن العبيد الذين اشتروا سفن تجارية وهم في الأسر، كانت تدر عليهم ...أموالا كبيرة، مثل الأسير الأمريكي جيمس ليندر كاثكارت، الذي عمل كاتبا

لدى داي الجزائر (1785-1795).

ويقول «روك فيل Roqueville» أن «السرقة هي التي كانت النشاط السائد لدى معظمهم لأنهم يحاولون جميعا كسب النقود. ما عدا الانجليز الذين كانوا يقفون بعيدا عن ذلك من باب التعالي».

ويقوم العبيد عند الخواص بالأشغال المنزلية. كما سبق القول، كصيانة وترميم الدار وتبييض الجدران بالجير وصناعة الخبز ورعاية الأطفال ... الخ. وكانت درجة سعادتهم تتوقف على مزاج سيدهم، إلا أن «فانتور دي بارادي Venture de Paradis» يقول: « إن الشبان ممن لهم الأناقة يحظون بكرم سيدهم ويجمعون في وقت قصير ما هو مطلوب لفدية أنفسهم فالمجتمع التركي كان رجاليا أكثر».

سجون الجزائر

وقع اختلاف في عدد السجون، فالبعض يذكر ستة والآخر يشير إلى ثلاث سجون. وسنأخذ بالرأي الأخير، لأننا سنقدم وصفا حيا وجدناه في مذكرات أسير أمريكي عاش الحدث مدة عشر سنوات، أنه جيمس ليندر كاثكارت James Leander Cathcart كان كاتبا للداي حسان باشا (1791-1798) ومؤجر الحانة في سجن «البايلك» إلى جانب وجود سجن «جاليرا» وسجن المجذفين، وسجن سيدي حمودة.

وقبل وصف هذه السجون، يستحسن تعريف كلمة "Bagne" لأن كثيرا من المؤرخين الفرنسيين يذكرون أن كلمة "Bagne" كانت نتيجة للأسرى المسيحيين بالجزائر، وبالتالي فإن الجزائر هي التي تسببت في ايجاد هذا المصطلح.

غير أن المتتبع للأحداث التاريخية التي جرت في منطقة البحر المتوسط، منذ القديم يخالف رأي الفرنسيين، وعليه نتابع الآن تاريخ وأصل الكلمة واشتقاقها.

يبدو أن أول استعمال للكلمة بدأ سنة 1701، في القاموس الفرنسي Furetière، ولم يكن لها استعمال قبل هذه المدة. خاصة في القواميس المشهورة Ranconet، 1616. وMénage، 1691، والقاموس الفرنسي - الاسباني César Oudin، 1607 و1660، والقاموس الفرنسي - الايطالي Oudin، 1627 وMénage، 1669.

واستعملها الأب دان Dan في كتابه Histoire de Barbarie، الصادر في سنة 1637، كما أننا نجد أن الكلمة استعملت بين الجزائر وفرنسا في عدة معاهدات عقدت بين البلدين، خاصة في معاهدتي 1681 (المادة 10) و1689 (المادة 25). كما أشار إليها المترجم Petit de la croix، سنة 1695 في مذكرته وصف وجيز لمدينة الجزائر.

وقد أشار في هذه المذكرة أن كلمة Bagne، يقابلها بالتركية Zendan .

أصل الكلمة

لقد اتفق معظم المعجمين بأن الكلمة مشتقة من الايطالية، وكانت تكتب في البداية "Bain" وأصبحت في القرن 16 "Bagne" والبعض الآخر يعتقد أنها من أصل إسباني "Bano" ولها نفس المعنى الموجود بالايطالية.

وتكتب بالشكل التالي حسب اللغات الأوربية:

بالإيطالية Bagno بالإسبانية Bano، بالفرنسية Bagne، وبالبرتغالية Ban-ho، وبالانجليزية Bagnio وبالمالطية Bagnu، وبالألمانية Bagno.

أما باللغة العربية فلم تعرف هذه الكلمة.

ونتوقف عند هذا الحد لأن أصل الكلمة وجد عند الأوربيين قبل المسلمين خاصة في فرنسا. فكانت الكلمة تعني أيضا «سجن الأسرى في سفينة» في ميناء معيّن، ولا يسجنون في منطقة يابسة بل في البحر، حسب القاموس الإيطالي، للمؤلف Tommasco وهذا ما نجده في سجن طولون Toulon وكذا المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة برا، في سجن كايان Bagne de Cay-enne، الذي لم يغلق أبوابه إلا في سنة 1938.

ولنبدأ بالأول

سجن «البايلك» مستطيل الشكل يبلغ طوله 140 قدما، وعرضه 60 قدما. ويتكون من ثلاث طوابق، وربما بلغ ارتفاع المبنى حوالي 50 قدما وجميع الشقق مبنية على أقواس وليس لها نوافذ إذا استثنينا فتحات

قضبان من حديد في كل واحدة من الشقق العليا ويدخل إليها الضوء والهواء من الباب. وأما الطابق الأرضي فلا توجد فيه تلك الفتحات وقد حول إلى حانات يديرها مسيحيون يدفعون ايجارها كما يدفعون ثمنا مرتفعا للحصول على رخصة لبيع الخمور والمأكولات فيها. وهذه الحالات لا ينفذ إليها الضوء في النهار وإنما تضاء بالمصابيح، ومتى اكتظت بالأتراك والمسيحيين والعرب واليهود في بعض الأحيان، وساد اللغط فيها بين السكارى فإن المنظر من أبشع وأشنع ما يمكن أن يتصوره العقل البشري.

وإذا أضفت إلى المنظر ضجيجا يعلو من آلة تسمى «الدربوكة» وأخرى تسمى «السنيطرة» وأحيانا قيتارة تركية وفي بعض الحالات آلة ايطالية تسمى «مندولين» وقيتارة اسبانية والصراخ المتعالى بمختلف اللغات، دون أن تكون بين هذه الآلات كلها أية رابطة. والخصومات الناجمة عن رفض بعض المستهلكين دفع ثمن مشروباتهم.

أدركت بسهولة أن هذه الأمكنة قطعة من الجحيم لا يمكن لها مثيل في العالم. ويشاهدون في جميع السجون باعة متجولين من مختلف الفئات بالليل ويعرضون بضائعهم وهكذا يتعاقب الاسكافيون والخياطون والنجارون وصانعوا البراميل والنشارون والبائعون بالتجزئة وكل منهم يعرض خدماته وبضائعه، وكلهم من السجناء.

يحيط بالطابق الثاني والثالث من مبنى هذا السجن ممر واسع يمكن الدخول منه إلى غرف طويلة ضيقة، وهي الغرف التي ينام فيها العبيد. إنهم

ينامون في إطارات مربعة يقع الواحد منها فوق الآخر في أربعة طوابق. إنهم نصف عراة وأسمالهم تعشش فيها كتل من القمل والبراغث، ولا يملكون من الفراش سوى غطاء قديم يلفون به أنفسهم في منتصف الشتاء. وأما الذين يملكون المال منهم، فينامون في الحانات أو في صناديق صغيرة تسمى غرفا بنيت على طول الممر المذكور.

وفي وسط السجن، أو تقريبا من الوسط تقع بئر يستخرج منها الماء وصهريج يمتد على طول السجن تقريبا. كان في الماضي يزود بماء المطر الذي يتساقط من سطح السجن.

وإلى جانب السجن المذكور، يوجد سجن «جاليرا» أو «سجن المجدفين» وقد سمي بهذا الاسم لأنه كان فيه في السابق العبيد الذين يجدفون في السفن الجزائرية. وعندما أعيد بناؤه وترميمه احتفظ بتلك التسمية.

وهذا السجن مبني على أساس نفس التصميم الذي بني عليه السجن الأول، ولكنه لا يحتوي إلا على طابقين وليس له نفس الطول، وأما الحانات فهي في نفس الموقع، والغرف المستطيلة في السجنين متشابهة، ولكنه يوجد فوق السطح صفان من الغرف الصغيرة يقع أحدهما فوق الآخر يسكنها الأسرى الذين يستطيعون دفع إيجارها. وهذه الغرف هي التي تجعل الطبقة الموسرة من العبيد تفضل هذا السجن على السجنين الآخرين. ولكن المضايقة الكبرى في هذه السجون ناجمة عن الاحتفاظ فيه بأسود ونمور تنبعث من أقفاصها رائحة كريهة، ومما يزيد من دقة الحالة أن هذه

الحيوانات المفترسة يحدث كثيرا أن تخرج من أقفاصها وتتهجم على السجونين وقد قتلت فعلا عددا من العبيد. وفضلات هذه الحيوانات توفر غذاء شهيا لحشود الفئران، والتي كثيرا ما يستعملها بعض العبيد لدفع حالة الجوع الذي ينهش أحشاءهم.

وأما سجن سيدي حمودة، فهو أصغر السجون الثلاثة، ولكنه يحتوي على جميع أنواع البؤس والشقاء المشتركة بين السجنين الآخرين. وبناؤه غير منتظم الشكل، حيث أنه يتكون من ثلاثة أو أربعة منازل قديمة تربط بينها ممرات. والسجن أخذ اسمه من مالك بنايته السابق.

وبعد هذا الوصف للسجون الثلاثة، نضيف أن مجموع نزلائها من العبيد يبلغ نحو ثلاثة آلاف شخص من البؤساء الذين زجوا فيها نتيجة للسياسة التي أنتهجتها الدول التجارية وعملت على تشجيع الدول المغاربية لضرب مصالح كل دولة تريد الحصول على نصيب من التجارة في البحر المتوسط وتشارك في أرباحهم. وفشل العمليات التي قام بها الأسطول الاسباني عدة مرات ضد الجزائر يمكن غروه إلى سببين: قوة الأسطول الجزائري، والمشورة والمساعدة التي تقدمها فرنسا دائما وباستمرار إلى الجزائر، ولا سيما عن طريق الغرفة التجارية بمرسيليا. تلك الغرفة التي تحتكر أهم فروع التجارة وأعظمها قيمة في جميع بلدان المغرب.

وأخيرا نشير أن «هايدو» ذكر سنة 1580، أن عدد العبيد في الجزائر يبلغ 25.000 وهو رقم، بالتأكيد، غير صحيح لأنه لو استمرَّ هذا الرقم على مدى ثلاثة قرون لبلغ عدد العبيد مليون سجين.

مشاهير الأسرى

- من الذين أسروا سرفانتس Cervantes، أسره الباي لرباي العلج علي ثم الباشا حسن فنزيانو من 1574 إلى 1580. وقد سجل وروى أسره في كتابه «الحياة في الجزائر La vie d'Alger» قبل أن يؤلف كتابه المشهور الذي خلده والذي صوّر مناظر من حياة السجون في مدينة الجزائر. وقد أقيم له تمثال سنة 1894 من طرف الجالية الاسبانية بالجزائر في المغارة التي لجأ إليها أثناء محاولة فراره على شارع سرفانتس قرب حديقة العناصر حاليا.

- رنيار Regn وقع في الأسر بالقرب من سواحل نيس وهو عائد من ايطاليا وصار عبدا في 1678 حيث روى في كتابه حكاية أسره.

- دارندا D'aranda، من النبلاء ولد في بروج ووقع في الأسر سنة 1640 ثم أطلق سراحه في 1642، ووصف عادات السجون في كتابه «رواية أسر السيد امانويل دارندا» باريس 1657.

مستشفيات الجزائر في القرن 16

قامت المنظمة الدينية للثالوث الأقدس بانشاء مجموعة مستشفيات في سجون الجزائر في النصف الثاني من القرن 17. وقد وضعت هذه المستشفيات تحت إشراف التاج الاسباني وبتشجيع من الحكومة الجزائرية وربما ينظر إلى هذه المبادرة كعملية علاج دولية جماعية لأسرى الحرب.

وبالتأكيد فإن توفير الدعم الواسع للمستشفيات من كلا الجانبين، الجزائري والاسباني، يعكس أهمية الأسرى للجزائر كما هو الحال بالنسبة للمجتمع الاسباني. وعن المعلومات المتعلقة بإدارة المستشفيات ونوعية العلاج فهي محدودة جدا. ولا نجد سوى المصادر القيمة التي وردت في أخبار الراهبين Silvestre وDiménez اللذين كانا لهما اتصال بالمستشفيات في نهاية وبداية القرنين 17 و18. وكذا دفتر حسابات يتضمن سجلات الدخل والانفاق، وعمليات الجرد للمستشفيات، وأدويتها، واحصائيات عدد المرضى المعالجين في فترات متقطعة من القرنين 17 و18. كما أنه عثر على مجموعة حسابات تغطي العقود الأربعة الأخيرة للقرن 18. التي احتفظ بها في دير منظمة الثالوث الأقدس، بمدريد، من قبل المدير العام للمستشفيات في شمال افريقيا. وقد استعملت هي الأخرى كوثائق وإن كانت هذه الأخيرة أقل أهمية من الفترة الأولى، لأنها لا تعطي سوى معلومات عن الدخل والمال المنفق المرسل من اسبانيا. وانها لا تقدم إخبار العمليات اليومية للمستشفيات بالجزائر.

ويعتقد بأن الحكايات الوصفية وكذا عملية جرد المساعدات الصيدلانية والآلات الطبية ما هي إلا جهود خاصة بالمستشفيات لعلاج المرضى، وعليه يمكن اعتبار هذه المستشفيات، في ذلك الاتجاه بأنها حديثة وهي غير المستشفيات التي لا تقدم سوى الوقاية والطعام، والتي لم تحاول على وجه التخصيص بعلاج الداء أو الجروح. ثم أن درجة جهودها العلاجية تبقى غير

معروفة.

لم تكن المستشفيات التي أقيمت في نهاية القرن 17 للأسرى في الج
هي الأولى، بل أنه وجد مستشفى واحد قبل هذه المدة وإن كان تا
غامضا. وحسب مصادر هايدو، فإن حسان باشا هو الذي بناه
1549 لعلاج المسلمين في مدينة الجزائر. وقد تأكد من أن الامتيازات
منحها داي الجزائر لمستشفيات الثالوث الأقدس في القرن 18 تعود
سنة 1551. وذلك حسبما أورده Francisco Diménez، الذي أورد أن
مستشفى أقامته منظمة الثالوث الأقدس يرجع إلى عام 1551. في الس
الكبير. كما ذكر الراهب Silvestre أنه كان في الجزائر ثلاث مؤسسات
هذا النوع، قبيل 1612. إذ كتب Bernardo de Monroy في ماي 612
أنه أقام هو ورفاقه مستشفى تابع لجمعية "Holy Trinity" وفيه ثمانية أس
في السجن الكبير، وأكد كلامه هذا حاكم الجزائر والحارس باجي،
السجن.

ويبدو أن المستشفى الذي أقامه Monroy قد أهمل وأصبح غير ص
للاستعمال في النصف الأول من القرن 17. ولم يعد له الاعتبار والاهت
إلا في نهاية القرن، مع بناء أربع مستشفيات أخرى.

ويعود الفضل في إقامة المؤسسات العلاجية، بالدرجة الأولى إلى ج
Pedro de la Conception، وهو من أعضاء جمعية الثالوث الأقدس،
بالجزائر في عام 1662. وقد سبق له أن قضى ثلاث سنوات قبل م

إلى الجزائر، في كل من اسبانيا والعالم الجديد. يجمع موارد مالية وهبات المستشفيات وقد استثمرت هذه الموارد المالية في السناهيات الحكومية والرهون العقارية حتى تبقى مصدرا ماليا دائما للمستشفيات.

وتقع هذه المستشفيات: (2) منهم في السجن الكبير والباقي (3) في السجون الأخرى. أما الإدارة العامة لهذه المستشفيات فكانت في السجن الكبير حيث يقيم المدير العام ومساعدوه من الرهبان (الثالوث الأقدس). كما توجد صيدلية في السجن الكبير توفر الأعشاب الطبية والأدوية لجميع المستشفيات.

ولكل مستشفى ممرض وطباخ، وكذا قسيس ملحق بالمؤسسة يشرف على القرابين المقدسة لأولئك المرضى من الأسرى. وجميع العاملين في هذه الخدمات هم من الأسرى، إذ يدفع المدير العام لمالكي هؤلاء الأسرى (2) Pe- شهريا.

كما يوجد في المستشفى طبيب أو جرّاح، وأحيانا كلاهما، ويتبعان مستشفى السجن الكبير. ويقومان بزيارات يومية لبقية المستشفيات.

وقد كان الأسرى الأحرار المقيمين في الجزائر، في القرن 17، هم الذين يقومون بالخدمة في المستشفيات وأصبح من العادة في القرن 18، ارسال جراحين من اسبانيا.

ويلاحظ أن أعضاء من جمعية "Mercedarians" حلوا بالجزائر لافتداء الأسرى سنة 1723، ولم يصحبوا معهم من اسبانيا لا جراح ولا صيدلي

للمستشفى. كما عادوا مرة ثانية سنة 1724، ومعهم جراح، لأن الأول توفي. ويخضع هؤلاء الجراحون إلى اختيار دقيق. وعلى ذكر هذا الاختيار، فإن رئيس الجراحين للمستشفى العام بمدريد قد أوصى رجال الثالوث الأقدس سنة 1769 باجراء امتحان للمترشحين لمنصب جراح في الجزائر، وقد تم اختيار "Manuel Antonio Suarez"، الذي سبق له وأن مارس المهنة في مستشفى الجراحين بمدريد، كأحسن مؤهل. وبرغم من العناية الفائقة في الاختيار، فإن الأفراد الذين يقع عليهم الاختيار لا ينجحون، عادة، في عملهم. وهذا مثال على ما نقوله. إذ طلب المدير العام بالجزائر سنة 1778 استبدال الجراح Felix Antonio Morates، الذي أرسل من اسبانيا في 1776. لأن المدير العام لم يكن راضيا عن عمله ولا عن أخلاقه. وقد حل محله Cipriano Canada، الذي سبق وأن عمل مع جميع المساعدين في المستشفى العام بمدريد مدة عشر سنوات.

وبالمقابل نجد Aljandro San Millan يتطوع للبقاء في الجزائر سنتين أخريين بعد انقضاء ست سنوات من عقد العمل سنة 1763.

وعن طاقة استقبال المستشفيات، فإن الوثائق لا تشير إلى ذلك عند تاريخ انشائها. مع العلم أننا نعرف أن المستشفى الرئيسي في السجن الكبير كان أكبرهم جميعا غير أن Alonso Cano، كتب في سنة 1770، أن قدرة الاستقبال كانت في حدود 60 سريرا. ولكنها قد تتسع لأكثر من مائة مريض أيام الأوبئة. وذكر كانو، أن مستشفاه هو الوحيد الذي بقي في

الفترة (1770).

وبالاضافة إلى الوثائق المذكورة آنفا، فإنه يمكن معرفة عدد الأسرى المعالجين في هذه المستشفيات بفضل بيانات القرابين المقدسة.

لقد تزايد عدد الأسرى بعد استرداد الجزائريين مدينة وهران من اسبانيا سنة 1709، واضطرت المستشفيات أن تستقبل أكثر من طاقتها المعتادة من المرضى والجرحى الذين تمت معالجتهم بعد الحرب.

وأدى ذلك إلى مضاعفة نفقات المستشفيات التي ارتفعت إلى 21.881 ريال في مدة سبعة أشهر من منتصف ماي إلى ديسمبر 1710. وبلغت النفقات عام 1707، 10.042 ريال وفي سنة 1711، ارتفعت النفقات إلى 34.712 ريال، وهي أكثر من ثلاث مرات عما كانت عليه سنة 1707.

مساهمة الجزائر في المستشفيات

تنازلت الجزائر عن بعض الضرائب والرسوم المعروفة بـ garramas، كدعم لهذه المستشفيات. ويشمل ذلك دفع (2) بيزوس عن كل سفينة مسيحية تدخل ميناء الجزائر لتفريغ أو شحن حمولتها، وكذا (2) ريال على كل نوتيّ ينزل إلى البر. كما تتلقى المستشفيات (2) ريال من قيمة (40) بيزوس، وهي ضريبة خاصة بكل أسير معتوق يغادر الجزائر. وأخيرا تمنح الدولة الجزائرية، المستشفيات منحة سنوية تعرف باسم "garrama" 6.5 بيزوس

عن كل «6» من "Botas" الخمر المنتوج في السجن الكبير. وقد ذكر "Silvestre" أن جميع هذه المداخيل بلغت 1.040 ريال في القرن 17 وانخفضت إلى 1.020 سنة 1704.

المستشفيات في المغرب وتونس

أقيمت مستشفيات على غرار مثيلاتها في الجزائر وإن كانت جاءت في فترة متأخرة. فقد أقام الأسبان في المغرب سنة 1691، مستشفى ملكي ودير رهبان في مكناس، ووضع هذا المستشفى تحت الرعاية السامية لسلطان المغرب مقابل هدية سنوية له. وقد كان عدد الأسرى الأسبان في هذه الفترة نحو ألف أسير في مكناس، وقد أسّر جلّهم أثناء الخدمة العسكرية. وأقيم المستشفى بدعم مالي ملكي اسباني قيمته 2.228 ريال سنويا، عند إنشائه. وكان يأوي (12) من أعضاء جمعية فرانسيسكان. غير أن "John Widus" الانجليزي، الذي زار المغرب في العشرينيات، كتب يقول إن المستشفى، الذي يتسع لمائة سرير، لا يوجد فيه سوى أربعة من أعضاء الجمعية وطبيب واحد، وليس 12 كما سبقت الإشارة.

وفي سنة 1720، غادر الأب Dimenez مستشفى الجزائر من أجل إقامة مستشفى مماثل له في تونس. ولتشجيع بناء مستشفيات أخرى في تونس قدم باي تونس أرضا خاصة لهذا الغرض، ومنح امتيازات على غرار ما تتمتع به المستشفيات في الجزائر. كحق استيراد الأدوية والآلات مع اعفاءات

حسركية. كما منح الباي المستشفى هدية مالية قيمتها (200) بيزوس سنويا.

وخص تحصيل ضريبة (2) بيزوس عن كل سفينة مسيحية تدخل ميناء تونس. و(2) ريال على كل أسير يُعتق. ووعد الباي، إدارة المستشفى بتوفير أربعة أسرى مسيحيين للعمل في المستشفى كامل الوقت، وأربعة أخرى لدفن الموتى من عبيد المسيحيين. وإلى جانب ما تقدم من مداخيل المستشفى، فإن اسبانيا كانت تساهم بمنحة سنوية قيمتها (200) بيزوس من مجلس "Cruzada" الذي قدم هذه المنحة من سنة 1729 إلى 1746 بشكل منتظم.

إقامة الكنائس في الجزائر في القرن 16

سمح بإقامة كنائس بجوار سجون الجزائر في القرن السادس عشر. ووفرت الطقوس الدينية لمعظم الأسرى. ولكن لا يعرف بالتأكيد متى وفي أي ظرف سمحت الجزائر لرجال الدين المسيحيين بالدخول إلى أراضيها لتلبية الحاجات الدينية للأسرى. وما يعرف هنا هو أن الجمعية الدينية الاسبانية "Franciscans" قد أرسلت بعثة دينية إلى المغرب لهذا الغرض في بداية القرن 13.

بعدها قامت الجمعيتين Trinitarian وMercedarian بإرسال كهنة إلى

مملكة غرناطة لعتق الأسرى، واغتنم هؤلاء الكهنة الفرصة وقاموا بالطقوس الدينية لصالح الأسرى.

وسمح للجمعية الأخيرة في سنة 1222 م بأن يكون لها في غرناطة قسّيس للتجار المسيحيين، وحتى يلبي رغبات الأسرى أيضا، إلى جانب ذلك فإننا نجد عادة رجال الدين ضمن الأسرى يقومون بالطقوس الدينية مع الأسرى.

ولكن لا يعرف إذا كانت هذه الطقوس تجري في السرية أو العلانية.

ان أول كنيسة مسيحية أقيمت في الجزائر كانت في سجن جزائري عرفت باسم Iglesia de Santa Cruz في السجن الكبير سنة 1551، أقامها كاهن من جمعية الثالوث الأقدس المدعو "Sebastian del Puerto".

كما أقيمت كنائس أخرى في السجون الأخرى في نفس الوقت.

ويعود الفضل في إقامة هذه الكنائس إلى حسان باشا، ابن خير الدين وقد حافظت هذه الكنائس على وجودها وبقائها بفضل المبالغ المالية التي جمعت بالجزائر خاصة تلك المبالغ التي تدفع في شكل ضريبة تفرض على أصحاب حانات السجون، فهم ملزمون بدفع رسوم عن كل الساك (ضرب من الخمر) من الخمر أو البراندي، كما تجمع صدقات من الأسرى لنفس الغرض.

ويسمح للكاهن الكبير في كل كنيسة بجمع مبالغ مالية يوميا بين أسرى سجنه بالاضافة إلى ذلك، كان الأهالي والأتراك يقومون بتبرعات للكنائس

وغالبا ما تكون في شكل شمع وزيت إنارة المصابيح، أو أقمشة فاخرة تزين بها الكنيسة في المناسبات الدينية المقدسة.

ففي سنة 1594، قام كل من الكاهنين Juan de Placios و-Antonio Ser-rano بتنظيم "Cofradia" في السجن الكبير.

وقد وجد في سجلات «كوفراديا» سنة 1595، قائمة تضم ما يزيد عن 700 أسير يشكلون منظمة رهبنة وكلهم من اسبانيا.

وقام نفس الشخصين، في السنة الموالية، بمساعدة إقامة Cofradia de Nuestra Senora del Rosario في سجن Bano de la Bastarada والسجون الأخرى.

وبحلول سنة 1639، بلغ عدد منظمات الرهبنة بالجزائر سبعة من هذا النوع، كانت تقوم بالطقوس يوميا. وتقوم بتنظيم الزياح (وهو عند المسيحيين احتفال ديني تحمل فيه أشياء مقدسة وتعرض على الجمهور أو يطاف بينهم) أسبوع الآلام "Holy Week" الذي يسبق الفصح وأعياد أخرى. وتقوم بدفن الموتى، وتجمع الأموال لمساعدة الكنائس.

وقد ذكر هايدو "Diego de Haedo" وهو أسير في الجزائر من 1582-1579 أن الطقوس الدينية كانت تجري بشكل منتظم طوال السنة. ويقوم بها الكهنة المتواجدون في السجون أو خارجها. فقد أشار هايدو أنه وجد في سنة 1579، (62) كاهن وسط الأسرى في الجزائر.

وفي إحصائية أجريت على 490 أسير اسباني تم عتقهم من قبل الجمعيتين الدينيتين، بين 1575-1591. وجد بينهم (14) كاهن، أي بنسبة 2٪ حددّت هويتهم ككهنة.

ولاحظ العديد من الاسبان الذين كتبوا عن الجزائر في القرنين 16 و17 أن الطقوس الدينية كانت منتظمة دائما للأسرى مقارنة مع مثيلاتها في اسبانيا.

ويذكر هايدو، أن الكنائس كانت تكتظ بالحاضرين أيام الاحاد وعيد الفصح، وعيد الميلاد، وعيد الخميس Pentecost وعيد الصوم الكبير Lent وعيد طقوس القربان Liturgy، وسبت النور Holy Saturday، وخميس الصعود Holy Thursday وأسبوع الآلام Holy Week.

وبصفة عامة، أظهر الأتراك والأهالي احتراما كبيرا لرجال الدين الاسباني ودينهم، وذلك باعتراف من Gracian، حيث أنه لم يصدّق ما رآه من الاحترام والتقدير لرجال الدين الكاثوليك. كما نورد شهادة أسيرين هما Vasorio وزميله Vivanco اللذين اعترفا أن «هؤلاء الكلاب الملحدين (يقصد الأهالي) تركونا نحافظ على ديننا ونقوم بطقوسنا».

ونختم حديثنا عن الكنائس بنوع معاملة الأهالي للكهنة، ذلك أنه في سنة 1579، على سبيل المثال، وهي سنة المجاعة في الجزائر، طلب باي لرباي الجزائر، حسان فينزيانو، من رجال الدين المسلمين نصيحة خاصة بالكهنة والأسرى، ونصحوه، أن يعفي الأسرى من العمل في هذه المرحلة الصعبة

وحيّي حسان هذا الاقتراح. ويعتمد موقف أهالي شمال افريقيا نحو الدين المسيحي ورجاله، أساسا، على تقاليد المسلمين في التسامح والاحترام لجميع الديانات الموحدة، وهو عكس ما حصل للأسرى المسلمين في مالطا وفرنسا وغيرهما من الاضطهاد الديني والبدني حسب اعترافات الكتاب الأوربيين المعاصرين للأحداث.

فدية الأسرى

إنه الحدث المنتظر وأمل الجميع، فقد كان بوسع الأسير أن تتم فديته بواسطة: عائلته، أو أقاربه، أو أصدقائه، أو من صاحب السفينة التي أسر على ظهرها، أو من دولته. أو بنفسه عندما تكون له حرفة تدر عليه المال المطلوب لفديته. وأخيرا نذكر دور البعثات التبشيرية التي تستعمل عدة طرق في الفدية.

وتنوعت هذه التنظيمات الدينية إذ نجد تنظيم الماثوريين، والثالوث الأقدس الذي أسسه جان ماطا Jean de Matha في القرن الثالث عشر وهو من نبلاء بروفانس. وتنظيم اللازريون Lazaristes، وآباء البعثة بزعامة Vincent de Paul. وإلى جانب دور هذه التنظيمات في الفدية، كانت تقوم البعثات الدينية بعمل مستمر في أماكن تواجد الأسرى إذ تساعد الأسرى على التعلق والتمسك بدينهم وتقيم القداس أيام الأحد في كنائس السجون وتقوم بصيانة المستشفى. وتساعد المساجين المحتضرين ويحمل أعضاؤها لذلك قربانا

مخفيا في علبة ويعلق على عنقهم.

وأصبح للأسرى الموتى مقبرتهم الخاصة في القرن 16. كانت تقع فوق شاطئ «ماطاراس» قرب حصون ساحة باب الواد.

وكانت التنظيمات الدينية الفرنسية تعمل على تحسيس الفرنسيين بجمع الأموال للمساهمة في افتداء الأسرى. وتستعمل لذلك سبلا متنوعة نذكر منها:

- فرض الرسوم مثل الإتاوات على العربات التي تجرها الخيول والعربات الفاخرة في مدن أورليال وبروج وبوردو وتور الخ ...

- الخطب الدينية في الكنائس.

- كتب الدعاية التي تندد وتغالي في مدى شقاوة الأسرى وتدعو إلى النصرانية والحرب الصليبية على غير أتباعها. وأشهر هذه الكتب هو كتاب « Père Dan .. رئيس دير الثالوث الأقدس وخلاص الأسرى». والغريب أن السفن التي تنقل الآباء الذين يذهبون لتخليص الأسرى كانت تتمتع بحصانة يضمنها ديوان الجزائر.

مفاوضات الأب دان P. Dan

حل الأب دان P. Dan بالجزائر رفقة لباج Lepage مبعوث لويس 14 وحضر تولي الباشا الجديد وطلب منه أن يستقبله للتفاوض معه بشأن مبادلة

عدد من الأسرى. «... غير أن الباشا أرسل إلينا يقول أنه حضر إلى البلاد منذ مدة قصيرة ولم يطلع بعد على أمور الجزائر ولم ينظم أموره، ولذلك فإنه يطلب من السيد لباج أن يمهله حوالي ثمانية أيام. وهكذا مرت ثلاثة أسابيع دون أن يكون في استطاعتنا الاعلان عن أي شيء.

غير أن الباشا الخبيث أرسل إليه كهدية باسمه وباسم المدينة ثورا وستة كباش وأربعة وعشرين دجاجة وثمانية وأربعين رغيفا ساخنا و72 شمعدان. ورد عليه السيد لباج من جهته ليس بالخبز واللحم ولكن بعدة هدايا ثمينة من ساعات ذهبية وفضية وكمية من الحرير والجوخ الرقيق القرمزي، أعجبت كثيرا الباشا الذي قدم إلى الجزائر يطمع الكسب لا غير ودفع غاليا حصوله على السلطة».

وبعد تقديم هذه الهدايا استقبلنا الباشا، وفي أثناء ذلك خوّل له الديوان أن يفصل في قضية سفير فرنسا برمتها كما يشاء.

«وطلب منه السيد لباج على لسان السيد روي Roy أن يسلم له كل الفرنسيين عبيدا كانوا أم أحرارا وأن يتم الافراج عنهم لكونهم أخذوا خلافا لبنود معاهدة السلام المبرمة في 1628، بين صاحب الجلالة النصرانية وميليشيا الجزائر وكذلك ارجاع كل البضائع التي استولت عليها بواخر جزائرية على غير حق من بواخر تجارية فرنسية وفي مقابل ذلك قدم عرضا يقضي بالإفراج عن 68 تركيا مسجونين في مرسيليا. ورفض الباشا هذا العرض قائلا أنه سيطرح الأمر على الديوان وأن الأمر في غاية الأهمية وأن

تنفيذه صعب جدا. ولكنه كان يقول لنا ذلك للترويح علينا ولتشويقنا غير أني علمت أن الديوان سبق له أن أمر بمنع كل فرنسي سواء كان حرا أو مفتدى من الالتحاق ببلاد النصارى ما لم يرسل إلى الجزائر الأتراك والمور المسجونين في مرسيليا. فقد أجلّت هذه القضية إلى يوم عودتنا إلى الجزائر عندما تتم تسوية كل هذه الأمور ...».

وفي تونس افتدى 42 أسيرا عاد بهم إلى باريس.

بلدان المغرب في القرن السادس عشر

يعود الفضل في التنظيم الإداري والسياسي بايالة الجزائر إلى خير الدين. كان البحر الأبيض المتوسط يمثل شبه جبهة ثانية بين الإمبراطورية العثمانية والامبراطورية الاسبانية الألمانية في الحرب القائمة بينهما. بفضل مشاركة الجزائر وتونس إلى جانب الامبراطورية العثمانية. كما أن مشاركة العلج علي باي لرباي الجزائر في معركة ليبانت Lepante سنة 1571. تشهد على العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الجزائر بالقسطنطينية وقد أرسلت الجزائر بين 11 و15 سفينة إلى المعركة.

وفي سنة 1587، تاريخ وفاة العلج علي، ألغى السلطان العثماني منصب باي لرباي في شمال افريقيا وقسّم أراضيها إلى ثلاث ايالات هي: الجزائر، وتونس وطرابلس على رأس كل منها باشوات يدوم سلطانهم ثلاث سنوات.

تنفيذه صعب جدا. ولكنه كان يقول لنا ذلك للترويح علينا ولتشويقنا غير أني علمت أن الديوان سبق له أن أمر بمنع كل فرنسي سواء كان حرا أو مفتدى من الالتحاق ببلاد النصارى ما لم يرسل إلى الجزائر الأتراك والمور المسجونين في مرسيليا. فقد أجلّت هذه القضية إلى يوم عودتنا إلى الجزائر عندما تتم تسوية كل هذه الأمور ...».

وفي تونس افتدى 42 أسيرا عاد بهم إلى باريس.

بلدان المغرب في القرن السادس عشر

يعود الفضل في التنظيم الإداري والسياسي بايالة الجزائر إلى خير الدين. كان البحر الأبيض المتوسط يمثل شبه جبهة ثانية بين الإمبراطورية العثمانية والامبراطورية الاسبانية الألمانية في الحرب القائمة بينهما. بفضل مشاركة الجزائر وتونس إلى جانب الامبراطورية العثمانية. كما أن مشاركة العلج علي باي لرباي الجزائر في معركة ليبانت Lepante سنة 1571. تشهد على العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الجزائر بالقسطنطينية وقد أرسلت الجزائر بين 11 و15 سفينة إلى المعركة.

وفي سنة 1587، تاريخ وفاة العلج علي، ألغى السلطان العثماني منصب باي لرباي في شمال افريقيا وقسّم أراضيها إلى ثلاث ايالات هي: الجزائر وتونس وطرابلس على رأس كل منها باشوات يدوم سلطانهم ثلاث سنوات.

المغرب الأقصى

قتل آخر السلاطين المرينيين سنة 1545، الذي كان على العرش في فاس، واستولى بنو وطاس على الحكم وهم من القبائل الرحل في المغرب الشرقي قبل أن يصبحوا سادة القصر. وكان عليهم آنذاك مواجهة البرتغاليين والاسبان الذين استمروا في حربهم الصليبية. وكذلك الوافدين الجدد أي الشريفيين السعديين وقد استطاعوا تخطي الصعاب بمساعدة وسائطي الزوايا والجمعيات الدينية.

وجعل السعديون من مراكش عاصمة لهم سنة 1524 وفي 1549 انتقلوا إلى فاس وفي 1554 بسطوا نفوذهم على كامل المغرب.

وقد برز في تاريخ المغرب خلال القرن 16 سلطان سعدي لامع هو أحمد المنصور، فطرد البرتغاليين من المغرب بعد انتصاره في معركة القصر الكبير 1578. والتي سماها المؤرخون العرب بمعركة وادي المخازن وسماها الأوربيون معركة الملوك الثلاث لمقتل ثلاثة ملوك فيها.

وقد أقام المنصور أسس الدولة المغربية في شكل فدرالية بين القبائل تديرها هيئة مركزية هي «المخزن».

ونظّم ابتداء من سنة 1591 الزحف المغربي على السودان والنيجر وجلب منهما الذهب والفضة ونجح في أن يحصّن بلاده من أتراك الجزائر رغم مختلف محاولات العلج علي.

مات السلطان المنصور في 1603.

تونس

ارتبط تاريخ تونس في القرن 16 ارتباطا وثيقا بتاريخ الجزائر. فقد اجتهد أتراك الجزائر في أحكام مراقبتهم على بوابة الحوض الغربي للبحر المتوسط وواجهوا في ذلك الاسبان الذين كانت لهم المطامع نفسها فصارت تونس محل صراع يتجاوزها.

فقد استولى خير الدين على تونس في 1534، واستردها شارل كان من الأتراك في 1535 حيث بنى قلعة حلق الوادي.

غير أنه في 1541 وفيما كان العثمانيون يغزون المجر لم يستطع الاسبان الوقوف على جبهتين مما جعلهم ينهزمون أمام الأترك في بجاية سنة 1555. كما حاصر الأتراك وهران سنة 1556. واستولى القرصان Dragut على طرابلس. وبعد معاهدة Cateau cambresis (1559) وفشل الاسبان في أوربا، اقتربت البحرية بين الدولتين العظميين في حوض المتوسط. ففي 1560 قام الاسبان بحملة على جزيرة جربة، وحاصر الأتراك جزيرة مالطة في 1565، وفي 1569 يستولي العلج علي على تونس.

أخيرا وبعد معركة ليبانت، ودخول Don Juan تونس عام 1573، سقطت المدينة وحلق الوادي عام 1574 تحت ضربات سينان باشا والقرصان دارغوث. وفي النهاية يمكن القول أن الصراعات الكبرى التي شهدتها بلدان المغرب خلال القرن السادس عشر أخرجتها من عصور القرون الوسطى وظهرت كتل سياسية في العصور الحديثة هي المغرب والجزائر وتونس.

قائمة بأسماء الباشاوات (1518 - 1600)

عروج مؤسس دولة الجزائر في الفترة العثمانية.		1516
خير الدين بارباروس		1518
حسان آغا		1533
الحاجي	بالنيابة	1545
حسان بن خير الدين		1546
صفًا	بالنيابة	1551
صالح رايس		1552
حسان قورصو	بالنيابة	1555
تكيلى		1556
يوسف	بالنيابة	1556
يحي	بالنيابة	1557
حسان بن خير الدين (المرة الثانية)		1557
حسان آغا	بالنيابة	1561
كوكا محمد	بالنيابة	1561
أحمد بن صالح رايس		1562
حسان بن خير الدين (المرة الثالثة)		1562

محمد بن صالح رايس		1567
حاجي علي	بالنيابة	1568
مامي	بالنيابة	1571
عرب أحمد		1572
قائد رمضان		1574
حسان فنزيانو		1577
جعفر		1580
حسان فنزيانو (المرة الثانية)		1582
مامت		1583
عرب أحمد (المرة الثانية)		1586
خضر		1589
شعبان		1592
مصطفى		1595
خضر (المرة الثانية)		1595
مصطفى (المرة الثانية)		1596
علي حسان		1598

I - قناصل فرنسا في الجزائر (1564 - 1627)

1 - Barthole 15 سبتمبر 1564.

2 - Maurice Sauron 1578 - 1585.

3 - Francois Guighigotto قنصل إضافي 1579.

4 - Le P. Bionneau 1585 - 1587.

5 - Jacques de Vias 1587 - 1627.

II - قائمة المبعوثين الفرنسيين إلى الجزائر في القرن 16

1 - De la Forest 1534 أرسلا إلى خير الدين لتعزيز التحالف الجزائري - الفرنسي ضد اسبانيا.

2 - De Montluc 1537

3 - D'Aramon 1551 أرسله هنري II إلى حسان بن خير الدين ليقدم له المساعدة العسكرية ضد اسبانيا والمغرب.

4 - D'Albisse 1552 - 1553 أرسله هنري II لتحضير هجوم ضد اسبانيا.

5 - San Pietro d'Ornano 1561 أرسل إلى رايس الجزائر للتعاون مع فرنسا لاحتلال سردانيا وكورسيكا.

6 - De Ménillon 1573 أرسل لاخبار الجزائر بالهجوم الاسباني المرتقب ضد الجزائر.

قناصل بريطانيا في الجزائر

John Tipton 1585

عين قنصلا في الجزائر على أن تلحق له مهام التمثيل في تونس وطرابلس. قتل في بحر الأدرياتيك.

؟ John Audeley 1598 - 1605

ويقول عنه Fisher Godfrey ، في كتابه Barbary Legend

"Perhaps never formally appointed but called the "Queen Consul and Publique Minister for the English Nation".

الخلاصة

إن ما يمكن ابرازه والتأكيد عليه من كل ما سبق أن استراتيجية التحرك العثماني في المتوسط خاصة في النصف الثاني من القرن السادس عشر. والقائمة كما أسلفنا على أولويات لا تأخذ دائما بالضرورة بالاعتبار مصلحة سواحل شمال افريقيا آنذاك. كانت لها عدة انعكاسات سلبية عليا، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- إن تلك الاستراتيجية التي كانت فيها المواقف الرسمية لاسطنبول هي وحدها المحددة لوجهة التحرك العثماني في المتوسط، قد أضرت بالامكانيات العسكرية والبشرية عموما للمغرب الأوسط.

ذلك أن القيادات المحلية، رغم عدم الأخذ بآرائها، أقحمت في كل المعارك التي عرفتها المنطقة سواء بمفردها أو إلى جانب الأسطول العثماني في أماكن بعيدة كمالطة سنة 1565. وليبنتي 1571 بقيادة العلج علي وسعه(20) سفينة. وهو الذي تولى قيادة الجناح الأيسر للمعركة.

إضافة إلى الاستراتيجية العثمانية التي أخطأت في تعاملها مع القيادات المحلية، ذلك أن هذه الأخيرة، كانت موجودة على ميادين المنطقة المغربية. قريبة من مواقع العمليات، عارفة بموازين القوى في المنطقة وبتحصينات العدو ونقاط ضعفه وقوته مما يجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتحديد التحرك السليم والمناسب والأولى. إلى أن آراءها لم توخذ بعين الاعتبار، وهو ما يجعلنا نقول أن العثمانيين الذين عملوا الاستفادة من القيادات البحرية

المحلية باشتراكها في العمليات العسكرية والمجهود الحربي العام للامبراطورية في المتوسط، لم يشركوا تلك القيادات - استراتيجيا - باسهامها في وضع خطط التحرك العسكري الرسمي والمشترك، وبذلك يمكن القول أن تلك القيادات المحلية حرمت من حق اتخاذ القرار، واعتبرت عناصر تنفيذية لقرارات وخطط فوقية صيغت في أروقة الباب العالي، بعيدا عن الواقع اليومي، آنذاك، للمغرب الأوسط والقوى الفاعلة فيه والخبيرة به.

المراجع

* نقلا عن وثائق إسلامية عن حصار مدينة الجزائر سنة 1541 . لـ: Basset, René، وقد أشار الكاتب إلى صاحب الوثيقة ومن قام بترجمتها، فيما يلي:

«قال من كتب هذه الغزوات من خطه وهو محمد بن رمضان الدلسي هذه الغزوات أصلها مكتوبة على اللسان التركي والقلم التركي فعبّرها بعض خوجات (كذا) الترك لمفتي الحنفية بالجزائر بلسان العرب لأن المفتي المذكور لا يحسن اللسان التركي وهو العالم الصالح النحوي المفسر الماهر في العلوم الأستاذ في علم الفرات الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمد بن علي الفلغى الجزايري رحمه الله تعالى ورضى عنه بمنه آمين وكتبه بهذا المحل الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن قاسم غفر الله تعالى ذنبه وستر بفضله عيبه وكان الفراغ منه ليلة الأحد السابعة من ربيع الثاني من عام سبعة وسبعين ومائة وألف من هجرته الخ، ص 10 .

Audisio (Gabriel) - Recherche sur l'origine et le signification du mot bagne. In R.A. No 452-453 (101), 1957, pp. 363-379.

Basset, (René) - Documents Musulmans sur le siège d'Alger en 1541. Paris, Oran, 1890, pp. 13-17 et 31-36.

Berbrugger (A.) - Les casernes de Danissaires à Alger. In R.A. No 14 (3), 1858, pp. 132-150.

Berbrugger (A.) - Charte des hopitaux chrétiene d'Alger en 1694. In

R.A. No 44 (8) 1864, pp. 233-44.

Berbrugger (A.) - Mers el kebir. In R.A. 1865-1867.

Berbrugger (A.) - La conquête d'Oran. In R.A. No 55 (10) 1866, pp. 43-50.

Berbrugger (A.) - Négociation entre Hassan Aga et le Conte d'Alcandete gouverneur d'Oran 1541-42. In R.A. No 53 (9) 1865, pp. 379-385.

Braudel (Fernand) - Les Espagnols et l'Afrique de Nord de 1492 à 1577. In R.A. No 355 (69), 1928, pp. 184-233.

Cazenave (Jean) - Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation Espagnole du cette ville 15089-1792. In R.A. No 344-345 (71) 1930, pp. 257-99.

Cervantes (Miguel de) - Le captive trad., C.Pitolet - Hautier, Paris, 1929.

Dan (le P.Pierre) - Histoire de barbarie et de ses corsaires, Paris, 1637.

E. D'Arnada - Relation de la captivité et liberté du sieur Emmanuel d'Arnada, Paris, 1665.

Ellen G. Friedman - Trinitarian hospitals in Algiers: An early example of Health Car for prisoners of war. In Catholic Historical Review "the" vol. LX VI. No 4. 1980, pp. 55-564.

Feraud (Charles) - Conquête du bougie par les Espagnols, d'après les manuscrits Arabes. In R.A. No 70 (12), 1868, pp. 242-256, et No 71 (12) 1868, pp. 337-349.

Heado (diego de) - De la captivité à Alger, trad., Moliner - violle. Alger, 1911.

Haedo (diego de) - Topographie et histoire général d'Alger, trad., Dr. Monnereau et Berbrugger (17). In R.A. 1871.

Haedo (diego de) - Navire et marchandise à l'entrée du port du Li-

vorne (1547-1611) 1951.

Haedo (diego de) - Histoire des Rois d'Alger, trad., H.D. de Grammont, Alger, 1881.

Grammont (Charles) - Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Paris, 1887.

Grammont (H.D. de) - Quel est le lieu de la mot d'Aroudj Barbarousse? In R.A. No 131-132 (22), 1878, pp. 388-399.

Grammont (H.D. de) - Le nom de Barbarousse dérive t-il de baba Aroudj. In R.A. 171 (29), 1885, pp. 226-231.

Grammont (H.D. de) - Etudes algériennes: la course, l'esclavage et la redemption à Alger, Paris, 1885.

Grammont (H.D. de) - Le R'azaouat est-il l'oeuvre de Kheir ed din (Barbarousse) 1873.

Grammont (H.D.de) - Un pacha d'Alger, précurseur de M. de Lessepts (1586), Alger, 1886 (El Euldj Ali).

Grammont (H.D.de) - Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger, Paris, 1874.

Klein (Henri) - Feuillets d'El Djezaïr, Alger, 1910.

Mas-Latrie (Le Conte Louis de) - Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiens moyenage, Paris, 1886.

Pestemaldjoglou (A.) - Mers el Kébir: Historique et description de la forteresse. In R.A. No 384-85 (84), 1940, pp. 154-185.

Ravenet (E.) - Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger. In R.A. 380-381 (83); 1939, pp. 303-322.

Rinn (edt) - Le Penon de Argel. In B.S.G.A., vol. 7, 1902, pp. 206-217.

Rocqueville (Francais de) - Relation des moeurs et du gouverneurs des Turks d'Alger,

Paris 1675.

Ruff, Paul - La Domination Espagnole à Oran: sous le gouvernement du Comte d'Alcaudete (1534-1558). Publication de l'Ecole des lettres d'Alger. in Bulletin de Correspondance Africaine 23. Paris, 1900.

Venture de paradis - Note sur Alger au XVIIIe siècle, Alger, 1898

Shaw (Thomas) - Travels and observations relating to several ports of barbary and the levent, Oxford, 1738.